سلسلة الخلفاء

الوليد بن عبد الملك

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

سلسلة الخلفاء

١٠ - ١

الوليد بن عبد الملك

وأسرته

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى إخوانه رسل الله وأنبيائه، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن الفتوحات في عهد الوليد بن عبد الملك قد امتدّت على أكثر سنوات خلافته، إذ طرقت أبواب الصين شرقاً، ودخلت بلاد الفرنجة (فرنسا) غرباً، وبذا ضمّت أجزاءً واسعةً إلى ديار الإسلام، فتوسّعت أرض الخلافة، وكثر جندها، وزاد دخلها، وعظُمت قوتها.

وجاءت خيرات كثيرة إلى قاعدة الخلافة، جاءت أموال بالأحمال وُزّعت على المسلمين فعاشوا في سعةٍ ونعيم، وشادت الدولة المساجد والمشافي فشعر السكان بالراحة والطمأنينة، وتمتّعوا بالصحة والعافية. وجاء السبي أرتالاً فكانوا يشتغلون زرّاعاً، وخدّاماً وصنّاعاً، ويعملون

حرّاساً ويعملون الأعمال كلها، وبينهم الإماء اللواتي يخدمن في البيت، وتحلّ الواحدة منهن للمسلم كما تحلّ له زوجته فأحسّ الناس بالنعمة والرفاه فالتفت جانب من الطرف إلى الحياة، ومالوا بعض الميل إلى الملذّات، وأخلدوا قليلاً إلى الأرض، وظهر التكاثر في النعم، والتسابق في الخير، فما من رجلٍ إلا وله مولىً، ويملك الإماء والجواري، وما من امرأةٍ إلا ولها وصيفة أو جارية تقوم عنها بالأعمال بل كثيراً ما تُؤدّي عنها أشغالها الخاصة، وما من مُقعدٍ إلا وله خادم، وما من ضريرٍ إلا وله قائد يسير به حيث رغب، ويقوده إلى كل موضعٍ.

هذه الأوضاع تجعل الأنظار تتجه دائماً نحو الثغور وتترقّب دائماً سير الجهاد ترنو بعيونها إلى الفتح وحركات القتال، وما يمنّه الله على المسلمين من نصرٍ فتحمد الله، وتنظر من ناحيةٍ ثانيةٍ إلى المغانم وما سيصل إليها من نعم الله، ويجب ألا ننسى أن القلوب هناك تنبض مع حركات أبنائهم المجاهدين وتهفو إلى صيحات التكبير تتضرّع إلى الله أن يعود الأولاد إليهم سالمين، والآباء غانمين، والإخوة منتصرين، والمجاهدون مُحقّقين غاياتهم، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

إن الفتوحات الواسعة التي تمّت أيام الوليد بن

عبد الملك، وحركة الفتح المستمرة، وأعمال الجهاد التي لا تنقطع، وسير المجاهدين الدائم إلى الثغور، وأخبار المعارك المتوالية، ووداع الشهداء، وتلقّي البشائر والمغانم كل هذا يجعل الأنظار تتجه دائماً إلى ساحات القتال، وتبتعد عن أجواء المدن والقرى، وتتسلّط الأضواء على نتائج المعارك فتُغطي بعض السلبيات في الداخل، وتُظهر نتائج الفتح على الجبهات، وتغيب العيوب، وتبدو المحاسن.

إن الموجة الأولى للفتوحات كانت أيام الفاروق، رضي الله عنه، وكانت الموجة الثانية لتلك الفتوحات أيام الوليد، رحمه الله. لذا عُرف الوليد، وبرز عهده، واتسمت أيامه بالفتح لذا لم تُوجّه إليه السهام كما صُوّبت على بقية خلفاء بني أمية، وإن كان العهد كله قد رُشق بسهام حادّةٍ ومسمومةٍ من الأعداء، ومن الشعوبيين، ومن الحاقدين الذين زالت دولهم التي كانت قائمةً قبل هذه الفتوحات، ووثنياتهم التي كانت شائعةً قبل هذا العهد إذ داسها المجاهدون بأقدامهم، ووطئها الفاتحون بحوافر خيلهم، وساد الإسلام بعد هذه الفتوحات واضطر بعض أصحاب تلك الوثنيات إلى إظهار الإسلام إذ لا مكان لهم في ديار الإسلام إلا باعتناق إحدى الديانات السماوية أو السيف. واعتناق الإسلام أفضل

لهم إذ يتحرّرون من دفع الجزية، ومن ناحيةٍ يستطيعون الهدم من الداخل على حين لا يستطيعون ذلك لو كانوا من أهل الكتاب.

صُوّبت السهام على الخلفاء لا بصفتهم الشخصية ولكن بصفتهم خلفاء يمثّلون الإسلام كنظامٍ، ويمثّلون المسلمين كحكامٍ اختارتهم الرعية المسلمةُ. ولم تكن السهام التي وُجّهتَ على الخليفة الوليد بن عبد الملك كغيرها مما وُجّه على بقية خلفاء بني أمية من حيث الكثرة، والحِدّة، وشربها السمّ رغم أن ما فُتح في عهده يفوق ما فُتح في بقيّة العهد كله، ففي أيامه إذن زالت وثنيات وامّحت، وزالت إمارات وانقضت ومع ذلك فهو أقلّ رشّاً من بقية خلفاء العهد، ولم يكن ذلك حُبّاً به، ولكن مكراً وخبثاً إذ شعروا أن الهجوم عليه يتناقض مع ما تمّ في عهده من فتوحاتٍ، وما أُشيد من عمرانٍ فكثرة الهجوم تُظهر التناقض، ويبدو الكذب واضحاً، فيُكشف الحقد، ويُعرف مصدره، ولم يعد يصدّق ما يقال أبداً، لذا خفّفوا عنه توجيه السهام، وقلّلوا عنه الهجمات. إضافةً إلى أنه لم تحدث في عهده فتن تكون مدخلاً للهجوم عليه، ولم تقع في أيامه خلافات تكون مجالاً للطعن فيه.

وسنقدّم لمحةً عن الوليد بن عبد الملك وعهده،

وما تمّ من فتوحاتٍ، وما حدث من إصلاحاتٍ، وما وقع من أغلاطٍ، وما ظهر من سلبياتٍ.

فنرجو الله أن يُوفّقنا في إعطاء صورةٍ صادقةٍ عن هذا الخليفة دون ميلٍ نحوه أو ظلمٍ له فإنما نبغي الحقيقة، ورائدنا الصدق، وغايتنا تدوين الواقع.

فنطلب العون من الله فهو نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الرياض: غرّة ربيع الثاني ١٤١٩هـ

محمود شاكر

البَابُ الأوّل

الوَليدُ بن عَبْد المَلِك

الفصل الأول

خِلافةُ الوَليد

توفّي عبد الملك بن مروان في منتصف شوال سنة ستٍّ وثمانين، وصلّى عليه ابنه الوليد، ودفُن خارج باب الجابية. وتمثّل هشام بن عبد الملك.

فما كان قيس هلكه هلك واحدٍ
ولكنه بنيان قومٍ تهدّما

فقال له الوليد: اسكت فإنك تتكلم بلسان شيطان، أما قلت كما قال أوس بن حجر:

إذا مقرم منا ذرى حدّ نابه
تخمط منا ناب آخر مقرم

وبعد دفن عبد الملك، وانصراف الوليد عن قبره، دخل الوليد المسجد الكبير بدمشق فصعد المنبر، واجتمع إليه الناس، فخطب فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان على مصيبتنا بموت أمير

المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا. فكان أول من قام لبيعته عبد الله بن همّام السلولي، وهو يقول:

الله أعــطــاك الــتــي لا فــوقــهــا
وقــد أراد الــمــلــحــدون عَــوْقَــهــا
عــنــك ويــأبــى الله إلا ســوقــهــا
إلــيــك حــتــى قــلّــدوك طــوقــهــا

فبايعه، ثم تتابع الناس على البيعة.

وذكر الواقدي: أنه حمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أيها الناس، إنه لا مقدّم لما أخّر الله، ولا مؤخّر لما قدّم الله، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه، وما كتبه على أنبيائه وحملة عرشه الموت. وقد صار إلى منازل الأبرار وليّ هذه الأمة الذي يحقّ عليه لله من الشدّة على المريب، واللين لأهل الحق والفضل، وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه، مِن حج هذا البيت، وغزو هذه الثغور، وشنّ هذه الغارة على أعداء الله، فلم يكن عاجزاً ولا مفرّطاً. أيها الناس، عليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الفرد. أيها الناس، من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه.

ثم نزل، فنظر إلى ما كان من دواب الخلافة فحازه.

واتجه بعدها الوليد نحو الجبهات فولّى الأبطال إمرة الثغور، وأعطى ولايات الحدود إلى القادة المجرّبين، وسلّم سيف الفتح إلى الرجال المخلصين، فعادت للجهاد مكانته، وانطلق الفتح في كل جهةٍ، وكان الوليد يمدّ المجاهدين دائماً، بالنجدات، ويزوّدهم بالتوجيهات، وهم في الوقت نفسه يمدّونه بالغنائم والسبي فيعمل هو بالعمران، ويقدّم للناس أعطياتهم، ويُقيم المشافي، ويعمر المساجد، ويحفظ الأمن لذا وجد الناس السعادة، وعاشوا بالنعم، وشعروا بالهناء.

الولايات:

أ ـ الشام: كانت بلاد الشام مكان سلطان بني أمية، ومركز قوتهم، وأهلها سيفهم يحاربون به الخصم، ويخمدون به أية حركة، وسكان الشام ذوو بأس، وأصحاب خبرة، وأهل حنكة، لهم رأي سديد، وفكر ثاقب، ودهاء معروف.

ب ـ المدينة: كان أمير المدينة عندما بدأ عهد الوليد بن عبد الملك هو هشام بن إسماعيل

المخزومي[1]، إذ ولاّه عليها ختنه عبد الملك بن مروان، وقد عزله عنها الوليد بن عبد الملك، وورد عزله عنها ليلة الأحد لسبع ليالٍ خلون من شهر ربيع الأول سنة سبعٍ وثمانين، وولّى الوليد عليها عمر بن عبد العزيز فقدمَها وهو ابن خمسٍ وعشرين. وولد سنة اثنتين وستين.

قدم عمر بن عبد العزيز على ثلاثين بعيراً، فنزل دار جده مروان بن الحكم، فدخل الناس وسلّموا عليه، فلما صلى الظهر دعا عشرةً من فقهاء المدينة: عروة بن الزبير[2]،

---

(١) هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي: كان والي المدينة منذ سنة اثنتين وثمانين ولاه عليها الخليفة عبد الملك بن مروان، وكانت ابنة هشام زوجة عبد الملك. حج بالناس سنوات إمرته على المدينة، وعزله الوليد بن عبد الملك سنة سبعٍ وثمانين، وينسب إليه المد فيقال: (المدّ الهشامي) وربما قيل: (المد الشامي).

(٢) عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد: أبو عبد الله، أحد فقهاء المدينة السبعة، أمه أسماء بنت أبي بكر، وخالته أم المؤمنين عائشة، وجدته صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله، ﷺ.

روى عن أبيه الزبير، وعن أمه أسماء، وخالته عائشة، وعن أم سلمة، وعن علي بن أبي طالب، وسعيد بن زيد، وجابر بن عبد الله، والحسن، والحسين، ومحمد بن مسلمة، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، وأبي هريرة، وأبي أيوب=

= الأنصاري، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وقيس بن سعد بن عبادة، وحكيم بن حزام، وأم هانئ بنت أبي طالب. وروى عنه عدد كثير من التابعين.

ولد عروة سنة ثلاثٍ وعشرين. قال عروة: وقفت وأنا غلام أنظر إلى الذين قد حصروا عثمان، رضي الله عنه، وقد مشى أحدهم على الخشبة ليدخل إلى عثمان فلقيه عليها أخي (عبد الله بن الزبير)، فضربه ضربةً طاح قتيلاً على البلاط، فقلت لصبيان معي: قتله أخي. فوثب عليّ الذين حصروا عثمان، فكشفوني، فوجدوني لم أنبت فخلّوني.

كان عروة ثقةً، ثبتاً، مأموناً، كثير الحديث، فقيهاً، عالماً.

قدم عروة على عبد الملك بن مروان، فأجلسه معه على السرير، فجاء قوم فوقعوا في عبد الله بن الزبير، فخرج عروة وقال للآذِن: إن عبد الله أخي، فإذا أردتم أن تقعوا فيه فلا تأذنوا لي عليكم. فذكروا ذلك لعبد الملك، فقال له عبد الملك: حدّثوني بما قلت، وإن أخاك لم نقتله لعداوة، ولكنه طلب أمراً وطلبناه، فقتلناه، وإن أهل الشام اعتادوا أن لا يقتلوا رجلاً إلا شتموه، فإذا أذنّا لأحدٍ قبلك، فقد جاء من يشتمه، فانصرف.

وقدم عروة على الوليد بن عبدالملك، فوقعت الأَكِلة في رجله في وادٍ قرب المدينة، وكان مبدؤها هناك، فظن أنها لا يكون منها إلا ما كان، فذهب في وجهه ذلك، فما وصل إلى دمشق إلا وهي قد أكلت نصف ساقه، فدخل على الوليد، فجمع له=

= الأطباء العارفين بذلك، فأجمعوا على أنه إن لم يقطعها أكلت رجله كلها إلى وركه، وربما ترقّت إلى الجسد فأكلته، فطابت نفسه بنشرها، وقالوا له: ألا نسقيك مُرَقِّداً حتى يذهب عقلك منه، فلا تحسّ بألم النشر؟ فقال: لا، والله ما كنت أظنّ أن أحداً يشرب شراباً، أو يأكل شيئاً يذهب عقله، ولكن إن كنتم لا بدّ فاعلين، فافعلوا ذلك، وأنا في الصلاة، فإني لا أحسّ بذلك، ولا أشعر به.

فنشروا رجله من فوق الأكِلة من المكان الحيّ احتياطاً أنه لا يبقى منها شيء، وهو قائم يصلي، فما تضوّر ولا اختلج. فلما انصرف من الصلاة عزّاه الوليد في رجله، فقال: اللهم لك الحمد، كان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً، فلئن كنت قد أخذت فقد أبقيت، وإن كنت قد أبليت فلطالما عافيت، فلك الحمد على ما أخذت وعلى ما عافيت.

وكان قد صحب معه بعض أولاده ومنهم محمد ـ وكان أحبهم إليه ـ فدخل دار الدواب فرفسته فرس فمات، فأتوه فعزّوه فيه، فقال: الحمد لله كانوا سبعةً فأخذت منهم واحداً وأبقيت ستةً، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت، ولئن كنت قد أخذت فلطالما أعطيت. فلما قضى حاجته من دمشق رجع إلى المدينة.

فما سُمع ذاكراً رجله ولا ولده، ولا شكا ذلك إلى أحدٍ حتى دخل وادي القرى فلما كان في المكان الذي أصابته الأكلة فيه قال: **﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾** [الكهف ٦٢].

فلما دخل المدينة أتاه أناس يُسلّمون عليه ويعزّونه في رجله وولده، فبلغه أن بعض الناس قال: إنما أصابه هذا بذنب عظيم=

....

= أحدثه فأنشد عروة في ذلك أبيات لمعن بن أوس:

لعمرك ما أهويت كفي لريبةٍ ... ولا حملتني نحو فاحشةٍ رِجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي
ولست بماشٍ ما حييت لمنكرٍ ... من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي
ولا مؤثر نفسي على ذي قرابةٍ ... وأوثر ضيفي ما أقام على أهلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتىً مثلي

وقال مسلمة بن محارب: وقعت في رجل عروة الأَكِلة، فقطعت ولم يمسكه أحد، ولم يدع في تلك الليلة وِرْدَه. وقال الأوزاعي: لما نشرت رجل عروة قال: اللهم إنك تعلم أني لم أمش بها إلى سوء قط.

كان عروة يقرأ كل يوم ربع القرآن، ويقوم به في الليل. وكان أيام الرطب يثلم حائطه للناس فيدخلون ويأكلون، فإذا ذهب الرطب أعاده.

وقال الزهري: كان عروة بحراً لا ينزف، ولا تكدره الدلاء.

حفر بئر «عروة» بالمدينة، وما بالمدينة أعذب من مائها.

قال الزبير بن بكار: حدثني غير واحدٍ أن عيسى بن طلحة جاء إلى عروة حين قدم، فقال عروة لبعض بنيه: اكشف لعمك رجلي، ففعل، فقال عيسى: إنا والله يا أبا عبد الله ما أعددناك للصراع ولا للسباق، ولقد أبقى الله منك لنا ما كنا نحتاج إليه، رأيك وعلمك. فقال: ما عزّاني أحد مثلك.

قال ابن خلكان: كان أحسن من عزّاه إبراهيم بن محمد بن طلحة، فقال: والله ما بك حاجة إلى المشي، ولا أرب في السعي، وقد تقدمك عضو من أعضائك، وابن من أبنائك إلى الجنة، والكل تبع للبعض ـ إن شاء الله ـ وقد أبقى الله لنا منك=

وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة[1]، وأبا بكر بن

= ما كنا إليه فقراء من علمك ورأيك، والله ولي ثوابك، والضمين بحسابك.

قيل: اجتمع في الحجر مصعب، وعبد الله، وعروة بنو الزبير، وابن عمر، فقالوا: تمنّوا، فقال عبد الله: أما أنا فأتمنى الخلافة، وقال عروة: أتمنى أن يؤخذ عني العلم، وقال مصعب: أما أنا فأتمنى إمرة العراق، والجمع بين عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين، وأما ابن عمر فقال: أتمنى المغفرة. فنالوا ما تمنّوا، ولعلّ ابن عمر قد غُفر له.

رأى عروة رجلاً يصلي صلاةً خفيفةً فدعاه فقال: يا أخي أما كانت لك إلى ربك حاجة في صلاتك؟ إني لأسأل الله في صلاتي حتى أسأله الملح.

قال عروة: رُبَّ كلمة ذلٍّ احتملتها أورثتني عزاً طويلاً.

قال عروة لبنيه: إذا رأيتم الرجل يعمل الحسنة، فاعلموا أن لها عنده أخوات، وإذا رأيتم الرجل يعمل السيئة، فاعلموا أن لها عنده أخوات، فإن الحسنة تدلّ على أختها، والسيئة تدلّ على أختها.

وتوفي عروة بن الزبير ـ رحمه الله ـ سنة أربع وتسعين ـ والله أعلم ـ.

(١) عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أبو عبد الله الهذلي، المدني، أخو المحدّث عون. وجدهما عتبة هو أخو عبد الله بن مسعود، رضي الله عنهما: الإمام، الفقيه، مفتي المدينة وعالمها، وأحد الفقهاء السبعة.

روى عن عائشة، وأبي هريرة، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وأبي سعيد الخدري، والنعمان بن بشير، =

عبد الرحمن[1] وأبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة[2]،

= وعن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث، وأم المؤمنين أم سلمة و. . . . وروى عنه أخوه عون، والزهري، وصالح بن كيسان، وأبو الزناد و. . .

وهو مُؤدّب عمر بن عبد العزيز. وقد كتب إليه:

بسم الذي أُنزِلَتْ من عنده السُّوَرُ والحمد لله أما بعد يا عمر
إذا كنت تعلم ما تأتي وما تذر فكن على حذرٍ قد ينفع الحذر
واصبرْ على القَدَر المحتوم وارض به وإن أتاك بما لا تشتهي القدر
فما صفا لامرىءٍ عيش يُسَرُّ به إلا سيتبع يوماً صفوه كَدَر

قال الزهري: كان عبيد الله بن عبد الله بحراً من بحور العلم.

مات عبيد الله بن عبد الله سنة ثمانٍ وتسعين.

(١) أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، أبو عبد الرحمن، الإمام، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة النبوية: كان ضريراً، واسمه كنيته. حدّث عن أبيه، وعمار بن ياسر، وأبي هريرة، وعائشة، وأم سلمة، وأسماء بنت عميس، وحدّث عنه ابناه عبد الله وعبد الملك، والزهري، وعمر بن عبد العزيز، وعكرمة بن خالد.

ولد في خلافة الفاروق عمر، وكان يقال له: راهب قريش لكثرة صلاته، وهو تابعي ثقة. ومات سنة أربع وتسعين.

(٢) أبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب، وأمه أمة الله بنت المسيّب بن صيفي بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

سمع أبو بكر بن سليمان من سعد بن أبي وقاص، وروى عنه الزهري.

وسليمان بن يسار[1]، والقاسم بن محمد بن أبي

---

(١) سليمان بن يسار: مولى أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية، وأخو عطاء بن يسار، وعبد الملك، وعبد الله. ولد في خلافة عثمان بن عفان، هو الإمام، الفقيه، عالم المدينة ومفتيها، أبو أيوب، وقيل: أبو عبد الرحمن، وأبو عبد الله.
حدّث عن زيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وأبي هريرة، وحسّان بن ثابت، ورافع بن خديج، وجابر بن عبد الله، وأمهات المؤمنين: عائشة، وأم سلمة، وميمونة، وأبي رافع مولى رسول الله، ﷺ، والمقداد بن عمرو.
وحدّث عنه الزهري، وأخوه عطاء بن يسار، وعمرو بن دينار، وربيعة الرأي، وأبو الزناد، وصالح بن كيسان.
قال مصعب الزبيري، عن مصعب بن عثمان: كان سليمان بن يسار أحسن الناس وجهاً، فدخلت عليه امرأة، فسامته نفسه، فامتنع عليها، فقالت: إذن أفضحك، فخرج إلى خارج وتركها في منزله وهرب منها. قال سليمان: فرأيت يوسف، عليه السلام، وكأني أقول له: أنت يوسف؟ قال: نعم، أنا يوسف الذي هممت، وأنت سليمان الذي لم تهمّ.
قال يحيى بن معين: سليمان ثقة.
قال النسائي: أحد الأئمة.
قال أبو زرعة: ثقة، مأمون، فاضل، عابد.
قال ابن سعد: كان ثقةً، عالماً، رفيعاً، فقيهاً، كثير الحديث، مات سنة سبع ومائةٍ.
كان أبوه يسارٌ فارسياً.
ولي سليمان بن يسار سوق المدينة لأميرها عمر بن عبد العزيز.
=

بكر[1]، وسالم بن عبد الله بن عمر[2]، وعبد الله بن

= وعن قتادة قال: قدمت المدينة فسألت عن أعلم أهلها بالطلاق، فقيل: سليمان بن يسار.

قال سليمان بن يسار: سعيد بن المسيّب، وسأل سعيدَ بن المسيَّب سائل، فقال: اذهب إلى سليمان بن يسار، فإنه أعلم من بقي اليوم.

وقال الإمام مالك: كان سليمان بن يسار من علماء الناس بعد سعيد بن المسيَّب، وكان كثيراً ما يوافق سعيداً، وكان سعيد لا يُجْترأ عليه.

(١) القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، أبو محمد، وأبو عبد الرحمن، البكري، التيمي، المدني، الإمام، القدوة، الحافظ، الحجة، عالم وقته بالمدينة: ولد في خلافة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. ورُبّي في حجر عمّته أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، وتفقّه منها، وأخذ عنها. وحدّث عنه ابنه عبد الرحمن، والشعبي، ونافع، والزهري، وربيعة الرأي، وصالح بن كيسان، وابن أبي مليكة.

أمه أم ولد يقال لها: «سودة» وكان ثقةً، عالماً، فقيهاً، ورعاً، كثير الحديث، وقد أخذ عن عائشة، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وأبي هريرة.

قال القاسم: إن من إكرام المرء نفسه أن لا يقول إلا ما أحاط به علمه.

ولد القاسم بالمدينة، وتوفي بـ «قديد» بين مكة والمدينة سنة ستٍّ ومائةٍ.

(٢) سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: الإمام الزاهد، الحافظ، مفتي المدينة، أبو عمر، وأبو عبد الله، القرشي، =

عبد الله بن عمر[1]، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد[2] فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد الله

= العدوي، المدني، أمه أم ولد، ولد في خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه. وهو والقاسم بن محمد ابنا خالة.
حدّث عن أبيه، وعن عائشة، وأبي هريرة.
دخل هشام بن عبد الملك فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال: سلني حاجةً، قال سالم: إني أستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره؛ فلما خرجا قال: الآن فسلني حاجةً، فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا، قال: والله ما سألت الدنيا من يملكها، فيكف أسألها من لا يملكها؟
كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم الغرّ السادة: علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، ففاقوا أهل المدينة علماً وتقىً وورعاً، فرغب الناس حينئذٍ في السراري.

(١) عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأمه صفية بنت أبي عبيد بن مسعود الثقفي فهي أخت المختار بن أبي عبيد. وتزوج عبد الله بن عبد الله أم سلمة بنت المختار أي ابنة خاله. وتوفي عبد الله بن عبد الله بالمدينة في أوائل خلافة هشام بن عبد الملك. وكان ثقةً، قليل الحديث.

(٢) خارجة بن زيد بن ثابت: الفقيه، الإمام بن الإمام، أحد الفقهاء السبعة الأعلام، النجاري، المدني، أبو زيد الأنصاري، وجده لأمه هو سعد بن الربيع الأنصاري أحد النقباء السادة، فأمه أم سعد بنت سعد بن الربيع. وتوفي بالمدينة سنة تسعٍ وتسعين.

وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدّى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فأُحَرِّج الله على من بلغه ذلك إلا بلّغني.

فخرجوا من عنده يدعون الله أن يجزيه خيراً، وتفرّقوا.

وكتب الوليد إلى عمر يأمره أن يقف هشام بن إسماعيل للناس، وكان فيه سيء الرأي. وقد دعا سعيد بن المسيَّب ابنه ومواليه فقال: إن هذا الرجل يوقف للناس ـ أو قد وقف ـ فلا يتعرّض له أحد ولا يُؤذه بكلمةٍ، فإنا نترك ذلك لله وللرحم، فإن كان ما علمت لسيء النظر لنفسه، فأما كلامه فلا أكلمه أبداً.

وكان هشام بن إسماعيل يسيء الجوار ويؤذي، ولقي منه علي بن الحسين أذًى شديداً، فلما وقف للناس قال: ما أخاف إلا من عليّ بن الحسين. فمرّ به عليّ وقد وُقِف عند دار مروان. وكان عليّ قد تقدّم إلى خاصته ألا يعرض له أحد منهم بكلمةٍ، فلما مرّ ناداه هشام بن إسماعيل: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وبقي عمر بن عبد العزيز أميراً على المدينة حتى سنة ثلاث وتسعين ثم عُزِلَ عنها، وذلك لأنه كتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بعسف الحجاج أهل عمله بالعراق واعتدائه عليهم، وظلمه لهم بغير حقٍ ولا جنايةٍ، وأن ذلك بلغ الحجاج فثار حقده على عمر بن عبد العزيز فكتب إلى الوليد: إن مَن قبلي من مُرّاق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجؤوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن. فكتب الوليد إلى الحجاج أن أشر عليّ برجلين، فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حيّان[1]، وخالد بن عبد الله، فولّى خالداً مكة وعثمان المدينة، وعزل عمر بن عبد العزيز.

خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة، وأقام بالسويداء، وهو يقول لمزاحم: أتخاف أن تكون ممن نفته طيبة!

---

(١) عثمان بن حيان بن معبد المري: أبو المغراء، والٍ، من الغزاة، من أهل دمشق، استعمله الوليد بن عبد الملك على المدينة سنة ثلاثٍ وتسعين، وكان في سيرته عنف، فعزله سليمان بن عبد الملك سنة ستٍ وتسعين، وولي الصائفة سنة ١٠٣، وغزا قيصرة من أرض الروم سنة ١٠٤، وهو ثقة عند أهل الحديث. وتوفي سنة خمسين ومائة.

وكان عمر بن عبد العزيز قد ضرب خبيب بن عبد الله بن الزبير خمسين سوطاً، وصبّ عليه قِربةً من ماء باردٍ في يوم شاتٍ، وأوقفه على باب المسجد، فمكث يومه ثم مات، وكان ذلك بناءً على أمرٍ من الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان.

شخص عمر بن عبد العزيز عن المدينة معزولاً عن المدينة في شعبان سنة ثلاثٍ وتسعين، وغزا فيها، واستخلف عليها حين شخص عنها أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري[1].

قدم عثمان بن حيّان المدينة لليلتين بقيتا من شوال، فنزل بها دار مروان وهو يقول: محلّة والله مظعان، المغرور من غرّ بك. فاستقصى أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. وأخذ رياح بن عبيد الله، ومنقذاً العراقي فحبسهم وعاقبهم، ثم بعث بهم في جوامع إلى الحجاج بن يوسف، ولم يترك بالمدينة أحداً من أهل العراق تاجراً ولا غير تاجر، وأمر بهم أن

---

(١) أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري الخزرجي النجاري المدني: أمير المدينة، ثم قاضي المدينة، أحد الأئمة الأثبات، قيل: كان أعلم أهل زمانه بالقضاء، كان كثير العبادة والتهجّد. توفي سنة عشرين ومائة.

يُخرجوا من كل بلد، فكانوا يرحّلون بالجوامع. وتتبع أهل الأهواء، فأخذ هصيماً فقطّعه، ومنحوراً ـ وكان من الخوارج ـ.

وخطب عثمان أهل المدينة على المنبر، فقال بعد أن حمد الله: أيها الناس إنا وجدناكم أهل غشٍّ لأمير المؤمنين في قديم الدهر وحديثه، وقد ضوى إليكم من يزيدكم خبالاً. أهل العراق هم أهل الشقاق والنفاق، هم والله عشّ النفاق وبيضته التي تفلّقت عنه، والله ما جرّبت عراقياً قط إلا وجدت أفضلهم عند نفسه الذي يقول في آل أبي طالب ما يقول، وما هم لهم بشيعةٍ، وإنهم لأعداء لهم ولغيرهم، ولكن لما يريد الله من سفك دمائهم فإني والله لا أُوتى بأحد آوى أحداً منهم، أو أكراه منزلاً، ولا أنزله، إلا هدمت منزله، وأنزلت به ما هو أهله، ثم إن البلدان لما مصّرها عمر بن الخطاب وهو مجتهد على ما يصلح رعيته جعل يمرّ عليه من يريد الجهاد فيستشيره: الشام أحب إليك أم العراق؟ فيقول: الشام أحبّ إليّ. إني رأيت العراق داءً عُضالاً، وبها فرّخ الشيطان. والله لقد أعضلوا بي، وإني لأراني سأفرّقهم في البلدان، ثم أقول: لو فرّقتهم لأفسدوا من دخلوا عليه بِجَدَلٍ وَحِجَاجٍ، وكيف؟ وَلِمَ؟ وسرعة وجيف في

الفتنة، فإذا خبروا عند السيوف لم يخبر منهم طائل[1]. لم يصلحوا على عثمان، فلقي منهم الأمرين، وكانوا أول الناس فتقوا هذا الفتق العظيم، ونقضوا عرا الإسلام عروةً عروةً، وأنغلوا[2] البلدان. والله إني لأتقرّب إلى الله بكل ما أفعل بهم لما أعرف من رأيهم ومذاهبهم. ثم وليهم أمير المؤمنين معاوية فدامجهم[3] فلم يصلحوا عليه، ووليهم رجل الناس[4] جلداً فبسط عليهم السيف، وأخافهم، فاستقاموا له أحبوا أم كرهوا، وذلك أنه خَبَرَهُمْ وَعَرَفَهُمْ.

أيها الناس، إنا والله ما رأينا شعاراً مثل الأمن، ولا رأينا حِلْساً قط شرّاً من الخوف، فالزموا الطاعة فإن عندي يا أهل المدينة خبرةً من الخلاف. والله ما أنتم بأصحاب قتالٍ، فكونوا من أحلاس بيوتكم، وعضّوا على النواجذ، فإني قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم. إنكم في فضول كلام غيرُه ألزم لكم، فدعوا عيب الولاة، فإن الأمر إنما يُنقضَ شيئاً فشيئاً حتى

(١) طائل: الطول والفضل.

(٢) أنغلوا: أفسدوا.

(٣) دامجهم: وافقهم.

(٤) يقصد الحجاج.

تكون الفتنة، وإن الفتنة من البلاء، والفتن تذهب بالدين وبالمال والولد.

قال سعيد بن عمرو الأنصاري: رأيت منادي عثمان بن حيّان ينادي عندنا: يا بني أمية بن زيد، برئت ذمة من آوى عراقياً ـ وكان عندنا رجل من أهل البصرة له فضل يقال له أبو سوادة، من العبّاد ـ فقال: والله ما أحبّ أن أدخل عليكم مكروهاً، بلّغوني مأمني؛ قلت: لا خير لك في الخروج، إن الله يدفع عنا وعنك. قال: فأدخلته بيتي، وبلغ عثمان بن حيان فبعث أحراساً، فأخرجته إلى بيت أخي، فما قدروا على شيءٍ، وكان الذي سعى بي عدواً، فقلت للأمير: أصلح الله الأمير، يؤتى بالباطل فلا تعاقب عليه. قال: فضرب الذي سعى بي عشرين سوطاً. وأخرجنا العراقي فكان يصلي معنا ما يغيب يوماً واحداً، وحَدِبَ عليه أهل دارنا، فقالوا: نموت دونك، فما برح حتى عُزل الخبيث.

قال محمد بن عمر: وحدثنا عبد الحكيم بن عبد الله بن أبي فروة، قال: إنما بعث الوليد عثمان بن حيّان إلى المدينة لإخراج من بها من العراقيين، وتفريق أهل الأهواء، ومن ظهر عليهم أو علا بأمرهم، فلم يبعثه والياً، فكان لا يصعد المنبر، ولا

يخطب عليه. فلما فعل في أهل العراق ما فعل، وفي منحور وغيره أثبته على المدينة، فكان يصعد على المنبر[1].

ج ـ مكة المكرمة: ولّى الخليفة الوليد بن عبد الملك على مكة سنة تسع وثمانين خالد بن عبد الله القسريّ[2]، فقال خالد على منبر مكة وهو يخطب: أيها

---

(1) تاريخ الطبري.

(2) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كُرز البجلي القسري، أبو الهيثم: ولي مكة للوليد، وسليمان، ثم ولي العراق لهشام بن عبد الملك.

له حديث في مسند الإمام أحمد، وفي سنن أبي داود، رواه عن جده يزيد، وله صحبة.

كان خالد جواداً، من نبلاء الرجال، لكنه في نصب معروف.

قيل لسيار: تروي عن مثل خالد؟ فقال: إنه أشرف من أن يكذب.

كانت أم خالد نصرانية، فقال الفرزدق:

ألا قبّح الرحمن ظهر مطيةٍ ... أتتنا تهادى من دمشق بخالد

وكيف يؤم الناس من كان أمه ... تدين بأن الله ليس بواحد

بنى بيعة فيها الصليب لأمه ... ويهدم من بغضٍ منار المساجد

كان القسري قد حرّم الغناء، فأتاه حنين في أصحاب المظالم ملتحفاً على عود، فقال: أصلح الله الأمير، شيخ ذو عيالٍ كانت له صناعة، حلت بينه وبينها، قال: وما ذاك؟ فأخرج عوده وغنّى:

=

الناس، أيهما أعظم؟ أخليفة الرجل على أهله، أم رسوله

= أيها الشامت المعيِّر بالشيب أَقِلَّنَّ بالشباب افتخارا
قد لبست الشباب قبلك حيناً فوجدت الشباب ثوباً مُعَارا
فبكى خالد، قال: صدق والله، عُد، ولا تجالس شاباً ولا معربداً.
الأصمعي: أن أعرابياً قال لخالد القسري: أصلحك الله، لم أَصُنْ وجهي عن مسألتك، فصنه عن الردّ، وضعني من معروفك حيث وضعتك من رجائي، فوصله.
وقال أعرابي: يأمر الأمير لي بملء جرابي دقيقاً؟ قال: املؤوه له دراهم، فقيل للأعرابي: كيف؟ فقال: سألت الأمير ما أشتهي فأمر لي بما يشتهي.
قال عبد الملك مولى خالد بن عبد الله: إني لأسير بين يدي خالد بالكوفة ومعه الوجوه، فقام إليه رجل، فقال: أصلح الله الأمير، فوقف، وكان كريماً، فقال: مالك؟ قال: تأمر بضرب عنقي؟ قال: لِمَ؟ قطعت طريقاً؟ قال: لا. قال: فنزعت يداً من طاعة؟ قال: لا. قال: فعلامَ أضرب عنقك؟ قال: الفقر والحاجة. قال: تمنّ؟ قال ثلاثين ألفاً. فالتفت إلى أصحابه فقال: هل علمتم تاجراً ربح الغداة ما ربحت؟ نويت له مائة ألف، فتمنّى ثلاثين ألفاً، ثم أمر له بها.
وقيل: أنشده أعرابي:
أخالد بين الحمد والأجر حاجتي فأيهما يأتي فأنت عماد
أخالد إني لم أزرك لحاجةٍ سوى أنني عافٍ وأنت جواد
فقال: سل، قال: مائة ألفٍ، قال: أسرفت يا أعرابي، قال: فأحط للأمير؟ قال: نعم.
قال: قد حططتك تسعين ألفاً، فتعجّب منه، فقال: سألتك=

إليهم؟ والله لو تعلموا فضل الخليفة، إلا أن إبراهيم

= على قدرك، وحططتك على قدري، وما أستأهله في نفسي، قال: ولا والله لا تغلبني، يا غلام أعطه مائة ألفٍ.
قال الأصمعي: أنشده أعرابي في مجلس الشعراء:

تعرضت لي بالجود حتى نَعَشْتَني — وأعطيتني حتى ظننت تلعب
فأنت الندى وابن الندى وأخو الندى — حليف الندى ما للندى عنك مذهب

فأعطاه مائة ألفٍ.
فقام أعرابي آخر فقال:

قد كان آدم قبْلُ حين وفاته — أوصاك وهو يجود بالحوباء
بنيه أن ترعاهم فرعيتهم — فكفيت آدم عيلة الأبناء

فتمنّى أن يعطيه عشرين ألفاً، فأعطاه أربعين ألفاً وأن يضرب خمسين جلدةً، وأن ينادى عليه: هذا جزاء من لا يحسن قيمة الشعر. قال: لا يحتجب الأمير عن الناس إلا لثلاثٍ: لعيٍّ، أو لبخلٍ، أو اشتمال على سوءةٍ.
ولي العراقين (البصرة والكوفة) سنة ١٠٥هـ أيام هشام بن عبد الملك، ثم إن هشاماً عزله عام ١١٥هـ، وولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي، وأمره أن يحاسبه، فسجنه وعذّبه بالحيرة، ثم قتله عام ١٢٦هـ. وقال فيه أبو الأشعث العبسي:

ألا إن خير الناس حياً وميتاً — أسير ثقيف عندهم في السلاسل
لعمري لقد أعمرتم السجن خالداً — وأوطأتموه وطأة المتثاقل
فإن سجنوا القسري لا يسجنوا اسمه — ولا يسجنوا معروفه في القبائل
لقد كان نهّاضاً بكل ملمّةٍ — ومعطي اللُّهى غمراً كثير النوافل

في يوم أضحى عام ١١٨ قال للناس: ضحّوا تقبّل الله منكم فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يُكلّم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد=

خليل الرحمن استسقى فسقاه ملْحاً أجاجاً، واستسقى الخليفة فسقاه عذباً فراتاً، بئراً حفرها الوليد بن عبد الملك بالثنيتين ـ ثنية طوىً وثنية الحَجون ـ فكان ينقل ماؤها في حوض من أدم إلى جنب زمزم، ليعرف فضله على زمزم.

ثم غارت البئر فذهبت فلا يدرى أين هي اليوم[1].

وقال خالد في خطبة له بمكة: أيها الناس إنكم بأعظم بلاد الله حرمةً، وهي التي اختار الله من البلدان، فوضع بها بيته، ثم كتب على عباده حجه من استطاع إليه سبيلاً. أيها الناس فعليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة،

= علواً كبيراً، ثم نزل فذبحه.

وكذلك قتل المغيرة بن سعيد البجلي الكوفي، أبا عبد الله الذي كان دجّالاً مبتدعاً. وقد جمع بين التنجيم والإلحاد، ويُؤلّه علياً، رضي الله عنه، ويُكفّر أبا بكر وعمر وسائر الصحابة، رضي الله عنهم، إلا من ثبت مع علي. ويقول: إن الأنبياء لم يختلفوا في الشرائع. ويدّعي أن علياً لو أراد أن يُحيي عاداً وثموداً لفعل. وتسمى جماعته «المغيرية». وقد أتى خالد بالمغيرة بن سعيد، وأصحابه، وكان المغيرة يريهم أنه يحيي الموتى، فقتل خالد واحداً منهم، ثم قال للمغيرة: أحيه، فقال: والله ما أحيي الموتى، قال: لتُحيينّه أو لأضربن عنقك. ثم قتله وأصحابه وذلك عام ١١٩هـ.

(١) تاريخ الطبري.

وإياكم والشبهات، فإني والله ما أوتي بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته في الحرم. إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها، فسلموا وأطيعوا، ولا تقولوا: كيت وكيت إنه لا رأي فيما كتب به الخليفة أو رآه إلا إمضاؤه. واعلموا أنه بلغني أن قوماً من أهل الخلاف يقدمون عليكم ويقيمون في بلادكم، فإياكم أن تُنزلوا أحداً ممن تعلمون أنه زائغ عن الجماعة، فإني لا أجد أحداً منهم في منزل أحدٍ منكم إلا هدمت منزله، فانظروا من تُنزلون في منازلكم، وعليكم بالجماعة والطاعة، فإن الفرقة هي البلاء العظيم[1].

عن موسى بن عقبة بن أبي حبيبة، قال: اعتمرت فنزلت دور بني أسد في منازل الزبير، فلم أشعر إلا به يدعوني، فدخلت عليه فقال: من أنت؟ قلت: من أهل المدينة، قال: ما أنزلك في منازل المخالف للطاعة! قلت: إنما مقامي إن أقمت يوماً أو بعضه، ثم أرجع إلى منزلي، وليس عندي خلاف، أنا ممن يعظم أمر الخلافة، وأزعم أن من جحدها فقد هلك. قال: فلا عليك ما أقمت، إنما نكره أن يقيم من كان زارياً على الخليفة، قلت: معاذ الله.

---

(١) تاريخ الطبري.

وقال خالد بن عبد الله القسري مرةً: والله لو أعلم أن هذه الوحش التي تأمن في الحرم لو نطقت لم تقرّ بالطاعة لأخرجتها من الحرم. إنه لا يسكن حرم الله وأمنه مخالف للجماعة، زارٍ عليهم[1].

وكان خالد قد جاء والياً على مكة مكان نافع بن علقمة الذي عزله الوليد. وبقي خالد على مكة حتى توفي الوليد.

د ـ **اليمن**: كان نفوذ الحجاج قوياً ليس في المناطق التي يتولّى إمرتها فقط وهي العراقين والمشرق بل وفي بقية المناطق والأقاليم الأخرى، وقد ولّى أخاه محمد بن يوسف الثقفي على صنعاء، ثم ضمّ إليه إقليم جند، ولم يزل والياً عليهما إلى أن توفي عام ٩١هـ. وقيل: إنه قد جمع المجذومين بصنعاء، وجمع لهم الحطب ليحرقهم، فمات قبل ذلك.

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال في خلافة الوليد بن عبد الملك: الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وأخوه (محمد بن يوسف) باليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقره بن شريك بمصر، امتلأت الأرض والله جوراً[2].

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) تاريخ الإسلام ـ الذهبي.

هـ ـ **البصرة**: كان الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقين (البصرة والكوفة) وسائر المشرق، وقد جعل على قضاء البصرة عبد الله بن أذينة، وجعل على الحرب أيوب بن الحكم[1]، ثم استبدله عام سبعٍ وثمانين بالجراح بن عبد الله الحكمي[2]، واستمرّ ذلك حتى توفي الحجاج فتسلّم إمرة العراقين يزيد بن أبي كبشة.
وقد ظلم الحجاج كثيراً في إمرته وغيرها، وقتل العلماء، ومنهم سعيد بن جبير. وذلك أن الحجاج بن يوسف قد بعث سعيد بن جبير مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لقتال رُتْبيل ملك الترك، وجعل الحجاج سعيداً على نفقات الجند. فلما خلع ابن الأشعث الحجاج خلعه معه سعيد بن جبير. فلما ظفر الحجاج بابن الأشعث

---

(١) أيوب بن الحكم بن أبي عقيل هو ابن عم الحجاج.
(٢) الجراح بن عبد الله الحكمي: أبو عقبة، أمير خراسان، وأحد الأشراف الشجعان، دمشقي الأصل والمولد، ولي البصرة للحجاج، ثم ولي خراسان وسجستان لعمر بن عبد العزيز، كان بطلاً، مهيباً، طوالاً، عابداً، قارئاً، كبير القدر. عزله عمر بن عبد العزيز لشدّةٍ بلغتهِ عنه، فأقام حتى ولاّه يزيد بن عبد الملك أرمينية وأذربيجان، وغزا الخزر، وافتتح حصن بلنجر، وأقره هشام بن عبد الملك، ثم عزله سنة ١٠٨، ثم أعاده عام ١١١هـ، فانصرف للغزو، واستشهد في رمضان عام ١١٢هـ. وكان البلاء بمقتل الجراح على المسلمين عظيماً.

وأصحابه، هرب سعيد بن جبير إلى أصبهان، فكتب الحجاج إلى نائبها أن يبعثه إليه، فلما سمع بذلك سعيد هرب منها، ثم كان يعتمر في كل سنةٍ ويحجّ، ثم إنه لجأ إلى مكة فأقام بها إلى أن وليها خالد بن عبد الله القسري، فأشار من أشار على سعيد بالهرب منها، فقال سعيد: والله لقد استحييت من الله؛ مما أفرّ ولا مفرّ من قَدره. وتولّى على المدينة عثمان بن حيان بدل عمر بن عبد العزيز فجعل يبعث من المدينة من أصحاب ابن الأشعث من العراق إلى الحجاج في القيود فتعلّم منه خالد بن عبد الله القسريّ فعيّن من عنده من مكة: سعيد بن جبير(١)، وعطاء بن أبي رباح(٢)، ومجاهد بن

---

(١) سعيد بن جبير بن هشام: الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد، أبو محمد، ويقال: أبو عبد الله الأسدي، الوالبي، مولاهم الكوفي، أحد الأعلام. قرأ القرآن على ابن عباس. وقرأ عليه أبو عمرو بن العلاء. عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال: مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه.

(٢) عطاء بن أبي رباح أسلم، شيخ الإسلام، مفتي الحرم، أبو محمد القرشي مولاهم المكي، كان مولى لبني جمح، ولد في خلافة عثمان بن عفان، ونشأ بمكة. حدث عن عائشة، وأم سلمة، وأم هانئ، وأبي هريرة، وعبد الله بن عباس، وحكيم بن حزام، ورافع بن خديج، وزيد بن أرقم، وزيد بن=

جبر[1]، وعمرو بن دينار[2] وطلق بن حبيب[3] ويقال:

= خالد الجهني، وصفوان بن أمية، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، ومعاوية بن أبي سفيان، وأبي سعيد الخدري.
كان عطاء، أسود، أعور، أفطس، أشلّ، أعرج، ثم عمي.
كان ثقةً، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث.
كان في زمان بني أمية يأمرون في الحج منادياً يصيح: لا يُفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح، فإن لم يكن عطاء فعبد الله بن أبي نجيح.
ولد عطاء سنة ستٍ وعشرين، وتوفي سنة أربع عشرة ومائة، فهو بذلك قد ناهز الثامنة والثمانين.

(١) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي: مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، شيخ القراء والمفسرين. روى عن ابن عباس، وأخذ عنه القرآن، والتفسير، والفقه، وروى عن أبي هريرة، وعائشة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عمر، ورافع بن خديج، وجابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، وأم هانئ. ومات مجاهد سنة مائة ـ والله أعلم ـ.

(٢) عمرو بن دينار بن شعيب، أبو يحيى الأعور: وكيل آل الزبير: مقلّ، له حديثان أو أكثر. ضعّفه أحمد، وقال البخاري: فيه نظر، توفي سنة ثلاثين ومائة.

(٣) طَلَق بن حبيب العنزي: بصري زاهد، من العلماء العاملين. حدّث عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وجابر بن عبد الله، والأحنف بن قيس، وأنس بن مالك.
كان طيّب الصوت بالقرآن، برّاً بوالديه. ثقة مرجئ. كان يعظ الناس. توفي سنة أربعٍ وتسعين.

إن الحجاج أرسل إلى الوليد يخبره أن بمكة أقواماً من أهل الشقاق، فبعث خالد بهؤلاء إليه، ثم عفا عن عطاء، وعمرو بن دينار لأنهما من أهل مكة، وبعث بأولئك الثلاثة.

فأما طلق فمات في الطريق قبل أن يصل، وأما مجاهد فحبس في السجن حتى مات الحجاج، وأما سعيد بن جبير، فلما أوقف بين يدي الحجاج، قال له: يا سعيد، ألم أشركك في أمانتي؟ ألم أستعملك؟ ألم أفعل ألم أفعل؟ كل ذلك يقول: نعم حتى ظنّ من عنده أنه سيخلّي سبيله، حتى قال له: فما حملك على الخروج عليّ، وخلعت بيعة أمير المؤمنين؟ فقال سعيد: إن ابن الأشعث قد أخذ مني البيعة على ذلك، وعزم عليّ، فغضب الحجاج عند ذلك غضباً شديداً، وانتفخ حتى سقط طرف ردائه عن منكبه، وقال له: ويحك! ألم أقدم مكة، فقتلت ابن الزبير، وأخذت بيعة أهلها، وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: بلى، قال: ثم قدمت الكوفة والياً على العراق، فجدّدت لأمير المؤمنين البيعة، فأخذت بيعتك له ثانيةً؟ قال: بلى! قال: فتنكث بيعتين لأمير المؤمنين، وتفي بواحدةٍ للحائك ابن الحائك؟ يا حرسي اضرب عنقه. فقال: فضُربتْ عنقه

فندر[١] رأسه عليه لاطئة[٢] صغيرة بيضاء[٣].

و ـ **الكوفة**: وكان على صلاة الكوفة المغيرة بن عبد الله بن أبي عقيل[٤]، وعلى الحرب زياد بن جرير بن عبد الله، وبقي زياد حتى وفاة الحجاج سنة خمس وتسعين، وقد ولي بعده يزيد بن أبي كبشة[٥] وفي سنة سبعٍ وثمانين استقضى الحجاج على الكوفة أبا بكرِ بن أبي موسى الأشعري[٦].

---

(١) ندر: سقط.

(٢) اللاطئة خرّاج وجُرح يصيب الإنسان.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

(٤) المغيرة بن عبد الله بن أبي عقيل: ابن عم الحجاج بن يوسف الثقفي.

(٥) يزيد بن أبي كبشة: اسم أبيه جبريل بن يسار، عُدّ في التابعين. كان مقدم السكاسك، وصاحب شرطة عبد الملك بعد روح بن زنباع. ولي إمرة العراقين (البصرة والكوفة) للوليد بن عبد الملك بعد وفاة الحجاج فلما استخلف سليمان بن عبد الملك ولاّه خراج السند، فنزلت رتبته قليلاً، وكان كبير الشأن، أدركه الأجل بالسند، توفي حوالي سنة مائة.

(٦) أبو بكر بن أبي موسى الأشعري: عالم ثقة، حدّث عن أبيه، وأبي هريرة، وابن عباس، وجابر بن سمرة. ولي للحجاج قضاء الكوفة بعد أن عُزل أخوه أبو بُردة بن أبي موسى الأشعري. وكذلك تولى بلال بن أبي موسى الأشعري قضاء البصرة. وكان جليلاً كريماً، وقد عذبه يوسف بن عمر الثقفي=

ز ـ **خراسان**: كان المهلب بن أبي صفرة[1] عامل خراسان، وقد توفي غازياً بمرو الروذ في ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين، فولي خراسان بعده ابنه يزيد بن المهلب[2]، وبقي حتى سنة خمسٍ وثمانين حيث عزله

= حتى مات سنة عشرين ومائة.
أما أبو بُردة فقد مات سنة أربعٍ ومائة.
ومات بلال سنة خمسٍ ومائة.

(١) المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق بن صبح بن كندي بن عمرو الأزدي العتكي البصري: ولد عام الفتح. ارتد قوم المهلب فقاتلهم عكرمة بن أبي جهل، وظفر بهم، فبعث بذراريهم إلى الصديق، فيهم أبو صفرة ظالم مراهقاً. ثم نزل البصرة. غزا المهلب الهند سنةِ أربعٍ وأربعين، وولي الجزيرة لابن الزبير، وحارب الخوارج، ثمّ ولي خراسان. وقد بالغ الحجاج في احترام المهلب لأنه دوّخ الأزارقة من الخوارج، ولقد قتل منهم في ملحمةٍ أربعة آلافٍ وثمانمائة.

(٢) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، أبو خالد الأزدي: ولد سنة ثلاثٍ وخمسين في عهد معاوية بن أبي سفيان، وَلي خراسان بعد أبيه، ثم عزله الحجاج وعذبه فسأله أن يخفف عنه الضرب على أن يعطيه كل يوم مائة ألف درهم، فقصده الأخطل ومدحه، فأعطاه مائة ألفٍ، فعجب الحجاج من جوده في تلك الحال، وعفا عنه، واعتقله، ثم هرب من سجنه.
ولي البصرة لسليمان بن عبد الملك، ثم عزله عمر بن عبد العزيز، وطلبه عمر وسجنه.
وليزيد أخبار في الجود والشجاعة: قيل أنه لما هرب من=

الحجاج وولى مكانه أخاه المفضل بن المهلب، ثم عزله في ربيعٍ الثاني من السنة نفسها.

= السجن قصد سليمان بن عبد الملك، فمر بعريب في البرية، فقال لغلامه: استسقنا منهم لبناً، فسقوه فقال: أعطهم ألفاً، قال: إن هؤلاء لا يعرفونك؛ قال: لكني أعرف نفسي.
سار يزيد إلى خراسان، ثم ردّ منها سنة تسعٍ وتسعين، فعزله عمر بن عبد العزيز بعُديّ بن أرطأة، فدخلَ يزيد ليسلم على عديٍّ، فقبض عليه وجهّزه إلى عمر، فسجنه حتى مات عمر.
أنشد زياد الأعجم يزيد بن المهلب:
وما مات المهلّب مذ رأينا   على أعواد منبره يزيدا
له كفّان: كفّ ندىً وجودٍ   وأخرى تُمطر العلق الحديدا
وقيل: إنه حجّ، فلما حلقٍ رأسه الحلاق أعطاه ألف درهم، فدهش بها، وقال: أمضي أُبشّر أمي، قال: أعطوه ألفاً أخرى، فقال: امرأتي طالق إن حلقت رأس أحدٍ بعدك، قال: أعطوه ألفين آخرين.
وقيل: دخل حمزة بن بيض على يزيد في حبسه فأنشده:
أصبح في قيدك السماح مع الـ   ـحلم وفنّ الآداب والخطب
لا بَطِرٌ إن تتابعت نعم   وصابر في البلاء محتسب
فقال يزيد: مالنا ولك يا هذا، قال: وجدتك رخيصاً فأحببت أن أسلفك، فقال لخادمه: كم معك من النفقة؟ قال: نحو عشرة آلاف درهم، قال: ادفعه إليه.
وقيل له: ألا تنشئ لك داراً؟ قال: لا، إن كنت متولياً فدار الإمارة، وإن كنت معزولاً فالسجن.
وكان ذا تيهٍ وكبْر، رآه المطرّف بن الشخِّير يسحب حُلّته فقال له: إن هذه مِشية يبغضها الله، قال: أو ما تعرفني؟. قال: =

وفي سنة ستٍّ وثمانين حبس الحجاج يزيد بن المهلب، وعزل حبيب بن المهلب عن كرمان، وعبد الملك بن المهلب عن شرطته.

خرج الحجاج بسريةٍ فأخذ معه يزيد وإخوته المفضّل وعبد الملك فجعلهم في عسكره، وجعل عليهم كهيئة الخندق، وجعلهم في فُسطاطٍ قريباً من حجرته، وجعل عليهم حرساً من أهل الشام، وأغرمهم ستة آلاف ألف، وأخذ يُعذّبهم، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً، وكان الحجاج يغيظه ذلك، فقيل له: إنهُ رمي بنُشّابةٍ فثبت نصلها في ساقه، فهو لا يمسّها شيء إلا صاح، فإن حُرّكت أدنى شيءٍ سمعتَ صوته، فأمر أن يُعذّب بساقه، فلما فعل به ذلك صاح، وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج، فلما سمعت صياح يزيد صاحت وناحت فطلّقها. ثم إنه كفّ عنهم، وأقبل يطلب منهم تأدية ما فُرض عليهم، فأخذوا يؤدون وهم يعملون في التخلّص

= بلى، أولك نطفة مَذِرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العَذِرة.

لما استخلف يزيد بن عبد الملك غلب يزيد بن المهلب على البصرة، وتسمّى بالقحطاني، فسار لحربه مسلمة بن عبد الملك، فالتقوا فقتل يزيد بن المهلب في صفر سنة اثنتين ومائة.

من مكانهم فبعثوا إلى أخيهم مروان بن المهلب وهو بالبصرة يأمرونه أن يضمر لهم الخيل، ويري الناس أنه إنما يريد بيعها ويعرضها للبيع، ويرفع من سعرها لئلا تشترى فتكون لنا عدة إن نحن قدرنا على أن ننجو مما نحن فيه. ففعل ذلك مروان، وحبيب بالبصرة يعذب أيضاً. وأمر يزيد بالحرس فصنع لهم طعام كثير فأكلوا، وأمر بشراب فسقوا، فكانوا متشاغلين به. ولبس يزيد لباس طبّاخِهِ، ووضع على لحيته لحيةً بيضاء، وخرج فرآه بعض الحرس فقال: كأن هذه مشية يزيد، فجاء حتى استعرض وجهه ليلاً، فرأى بياض اللحية، فانصرف عنه، فقال: هذا شيخ. وخرج المفضل على أثره، ولم يُفطن له، فجاءوا إلى سفنهم وقد هيئوها في البطائح، وبينهم وبين البصرة ثمانية عشرة فرسخاً، فلما انتهوا إلى السفن أبطأ عليهم عبد الملك وشُغل عنهم، فقال يزيد للمُفضّل: اركب بنا فإنه لاحق، فقال المفضّل - وعبد الملك أخوه لأمه - وهي بهلة، هندية: لا والله لا أبرح حتى يجيء ولو رجعت إلى السجن. فأقام يزيد حتى جاءهم عبد الملك، وركبوا عند ذلك السفن، فساروا ليلتهم حتى أصبحوا، ولما أصبح الحرس علم بذهابهم، فرفع ذلك إلى الحجاج. وقال الفرزدق في خروجهم:

فلم أر كالرهط الذين تتابعوا
على الجذع والحراس غير نيام
مضوا وهم مستيقنون بأنهم
إلى قدرِ آجالهم وحمام
وإن منهم إلا يُسكّن جأشه
بعضبٍ ثقيلٍ صارم وحسام
فلما التقوا لم يلتقوا بمُنَفَّةٍ
كبير ولا رخص العظام غلام
بمثل أبيهم حين تمّت لِداتهم
لخمسين قل في جرأةٍ وتمام

ففزع له الحجاج، وذهب وهمه أنهم ذهبوا قبل خراسان، وبعث البريد إلى قتيبة بن مسلم يُحَذِّره قدومهم، ويأمره أن يستعدّ لهم، وبعث إلى أمراء الثغور والكور أن يرصدوهم، ويستعدّوا لهم، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بهربهم، وأنه لا يراهم أرادوا إلا خراسان، ولم يزل الحجاج يظن بيزيد ما صنع، كان يقول: إني لأظنّه يحدّث نفسه بمثل الذي صنع ابن الأشعث.

ولما دنا يزيد من البطائح من مَوْقُوع (ماء بناحية البصرة) استقبلته الخيل وقد هيئت له ولإخوته، فخرجوا عليها ومعهم دليل لهم من قبيلة كلب يقال له:

عبد الجبار بن يزيد بن الربعة، فأخذ بهم على السماوة، وأُتي الحجاج بعد يومين، وقيل له: إنما أخذ الرجل طريق الشام، وهذه الخيل حسرى في الطريق، وقد أتى من رآهم موجهين في البر، فبعث إلى الوليد بن عبد الملك يعلمه ذلك، ومضى يزيد حتى قدم فلسطين، فنزل على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي - وكان كريماً على ولي العهد سليمان بن عبد الملك - وأنزل بعض ثَقَله وأهله على سفيان بن سليمان الأزدي، وجاء وهيب بن عبد الرحمن حتى دخل على سليمان بن عبد الملك، فقال: هذا يزيد بن المهلب، وإخوته في منزلي، وقد أتوك هُرّاباً من الحجاج متعوّذين بك، قال: فأتني بهم فهم آمنون لا يوصل إليهم أبداً وأنا حيّ. فجاء بهم حتى أدخلهم عليه، فكانوا في مكانٍ آمنٍ، فقال عبد الجبار بن يزيد الكلبي دليلهم في مسيرهم:

ألا جعل الله الأخلاء كلهم
فداءً على ما كان لابن المهلّب
لنعم الفتى يا معشر الأزد أسعفت
ركا بكم بالوهب شرقي مَنْقَب
عدلن يميناً عنهمُ رمل عالجٍ
وذات يمين القوم أعلام غُرَّب

فإلا تصبح بعد خمسٍ ركابنا
سليمان من أهل اللِّوى تتأوّب
تقرّ قرار الشمس مما وراءنا
ونذهب في داجٍ من الليل غيهب
بقوم هُمُ كانوا الملوك هديتُهم
بظلماء لم يبصر بها ضوء كوكب
ولا قمرٍ إلا ضئيلاً كأنه
سوارٌ حناه صائغ السور مُذْهَب

بينا كان عبد الجبار بن يزيد بن الربعة يسري بهم سقطت عمامة يزيد، ففقدها فقال: يا عبد الجبار، ارجع فاطلبها لنا، قال: إن مثلي لا يؤمر بهذا، فأعاد، فأبى، فتناوله بالسوط، فانتسب له، فاستحيا منه، فقال تلك القصيدة.

وكتب الحجاج: إن آل المهلب خانوا مال الله وهربوا مني ولحقوا بسليمان. وكان آل المهلب قدموا على سليمان، وقد أمر الناس أن يحصّلوا ليسرّجوا إلى خراسان، لا يرون إلا أن يزيد قد توجه إلى خراسان ليفتن من بها. فلما بلغ الوليد مكانه عند سليمان هوّن عليه بعض ما كان في نفسه، وطار غضباً للمال الذي ذهب به.

وكتب سليمان إلى الوليد: إن يزيد بن المهلّب عندي، وقد آمنته، وإنما عليه ثلاثة آلاف ألفٍ، فهي عليّ، فكتب إليه: لا والله لا أؤمنه حتى تبعث به إليّ. فكتب إليه: لئن أنا بعثت به إليك لأجيئن معه، فأنشدك الله أن لا تفضحني وأن لا تُخفرني، فكتب إليه: والله لئن جئتني لا أؤمنه. فقال يزيد: ابعثني إليه، فوالله ما أحب أن أوقع بينك وبينه عداوةً وحرباً، ولا أن يتشاءم بي لكما الناس، ابعث إليه بي، وأرسل معي ابنك، واكتب إليه بألطف ما قدرت عليه. فأرسل ابنه أيوب معه. وكان الوليد أمره أن يبعث به إليه في وثاق. فبعث به إليه، وقال لابنه: إذا أردت أن تدخل عليه فادخل أنت ويزيد في سلسلة ثم ادخلا جميعاً على الوليد، ففعل ذلك به حين انتهيا إلى الوليد، فدخلا عليه. فلما رأى الوليد ابن أخيه في سلسلةٍ، قال: والله لقد بلغنا من سليمان، ثم إن الغلام دفع كتاب أبيه إلى عمه، وقال: يا أمير المؤمنين، نفسي فداؤك لا تخفر ذمة أبي، وأنت أحق من مَنَعها، ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة في جوارنا لمكاننا منك، ولا تذلّ من رجا العزّ في الانقطاع إلينا لعزّنا بك. وقرأ الكتاب:

لعبد الله الوليد أمير المؤمنين من سليمان بن عبد الملك. أما بعد يا أمير المؤمنين، فوالله إن كنت

لأظن لو استجار بي عدو قد نابذك وجاهدك فأنزلته وأجرته أنك لا تذلّ جاري، ولا تُخفر جواري، بله لم أُجِر إلا سامعاً مطيعاً حسن البلاء والأثر في الإسلام هو وأبوه وأهل بيته، وقد بعثت به إليك، فإن كنت تعزو قطيعتي والإخفار لذمتي، والإبلاغ في مساءتي، فقد قدرت إن أنت فعلت. وأنا أعيذك بالله من احتراد[1] قطيعتي، وانتهاك حرمتي، وترك برِّي وصلتي، فوالله يا أمير المؤمنين ما تدري ما بقائي وبقاؤك، ولا متى يفرّق الموت بيني وبينك، فإن استطاع أمير المؤمنين ـ أدام الله سروره ـ ألا يأتي علينا أجل الوفاة إلا وهو لي واصل، ولحقّي مؤدٍّ، وعن مساءتي نازع فليفعل. والله يا أمير المؤمنين ما أصبحت بشيءٍ من أمر الدنيا بعد تقوى الله فيها بأسرّ مني برضاك وسرورك. وإن رضاك مما ألتمس به رضوان الله، فإن كنت يا أمير المؤمنين تريد يوماً من الدهر مسرتي وصلتي وكرامتي وإعظام حقي فتجاوز لي عن يزيد، وكل ما طالبته به فهو عليّ. فلما قرأ كتابه قال: لقد شققنا على سليمان، ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه. وتكلم يزيد فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيّه ﷺ، ثم قال:

---

(١) الاحتراد: القصد.

يا أمير المؤمنين إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء فمن ينسى ذلك فلسنا ناسيه، ومن يكفر فلسنا كافريه، وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم والطعن في أعين أعدائكم في المواطن العظام في المشارق والمغارب ما إن المنّة علينا فيها عظيمة.

فقال له: اجلس، فجلس فآمنه وكفّ عنه، ورجع إلى سليمان، وسعى إخوته في المال الذي عليه وكتب إلى الحجاج: إني لم أصل إلى يزيد وأهل بيته عند سليمان فاكفف عنهم والْهُ عن الكتاب إليّ فيهم.

فلما رأى ذلك الحجاج كفّ عنهم، وكان أبو عيينة بن المهلب عند الحجاج عليه ألف ألف درهم، فتركها له، وكفّ عن حبيب بن المهلب، ورجع يزيد إلى سليمان بن عبد الملك فأقام عنده يُعلّمه الهيئة، ويصنع له طيب الأطعمة، ويهدي له الهدايا العظام. وكان من أحسن الناس عنده منزلةً، وكانت لا تأتي يزيد بن المهلب هدية إلا بعث بها إلى سليمان، ولا تأتي سليمان هدية ولا فائدة إلا بعث بنصفها إلى يزيد بن المهلب. وكان لا تعجبه جارية إلا بعث بها إلى يزيد إلا (خطيئة) الجارية. فبلغ ذلك الوليد بن عبد الملك، فدعا الحارث بن مالك بن ربيعة الأشعري فقال: انطلق إلى

سليمان فقل له: يا خالفة أهل بيته، إن أمير المؤمنين قد بلغه أنه لا تأتيك هدية ولا فائدة إلا بعثت إلى يزيد بنصفها، وإنك تأتي الجارية من جواريك فلا ينقضي طهرها حتى تبعث بها إلى يزيد، وقَبِّحْ ذلك عليه، وعيِّره به، أتراكَ مُبَلِّغاً ما أمرتك به؟ قال: طاعتك طاعة، وإنما أنا رسول، قال: فأته فقل له ذلك، وأقم عنده، فإني باعث إليه بهديةٍ فادفعها إليه، وخذ منه البراءة بما تدفع إليه.

ثم أقبل فمضى حتى قدم عليه وبين يديه المصحف، وهو يقرأ، فدخل عليه فسلّم، فلم يردّ عليه السلام حتى فرغ من قراءته، ثم رفع رأسه إليه فكلّمه بكل شيءٍ أمره به الوليد، فَتَمَعَّر وجهه، ثم قال: أما والله لئن قدرت عليك يوماً من الدهر لأقطعنّ منك طابقاً، فقال له: إنما كانت عليّ الطاعة.

ثم خرج من عنده. فلما أتى بذلك الذي بعث به الوليد إلى سليمان، دخل عليه الحارث بن ربيعة الأشعري وقال له: أعطني البراءة بهذا الذي دفعت إليك، فقال: كيف قلت لي؟ قال: لا أعيده عالماً أبداً، إنما كان عليّ فيه الطاعة. فسكن، وعلم أنه قد صدقه الرجل، ثم خرج وخرجوا معه، فقال: خذوا نصف هذه

الأعدال ونصف هذه الأسفاط، وابعثوا بها إلى يزيد.

علم الرجل أن سليمان لا يطيع في يزيد أحداً، ومكث يزيد بن المهلّب عند سليمان تسعة أشهرٍ. وتوفي الحجاج سنة خمسٍ وتسعين في رمضان لتسعٍ بقين منه في يوم الجمعة(١).

ثم ولي يزيد العراق بعد الحجاج.

ح ـ مصر: تولّى أمر مصر بعد وفاة عبد العزيز بن مروان سنة خمسٍ وثمانين ابن أخيه عبد الله بن عبد الملك، وفي سنة تسعين عزل الوليد بن عبد الملك أخاه عبد الله بن عبد الملك عن مصر، وولّى عليها قُرّة بن شَريك(٢).

ط ـ إفريقية: تولّى أمر إفريقية سنة ثمان وسبعين موسى بن نُصير بعد حسان بن النعمان الغساني، فتقدّم موسى في بلاد المغرب، ووطّد الأمن، ومكّن للمسلمين

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) قُرّة بن شَريك بن مرثد العبسيّ الغطفانيّ المُضريّ القيسيّ القِنّسرينيّ: نائب ديار مصر للوليد بن عبد الملك، ظالم، جبّار، عاتٍ، مات سنة ستٍ وتسعين في مصر بعد أن وليها سبع سنواتٍ. أنشأ جامع الفسطاط، همّت مجموعة من الخوارج تزيد على المائة على اغتياله، فعرف فقتلهم جميعاً.

وعندما وجد أن الأمر قد استقرّ كان لا بد له من متابعة المهمة الملقاة على عاتقه والمناطة بالأمة الإسلامية وهي نشر الدعوة وإبلاغ الإسلام للناس مهما كان بينه وبينهم من شُمّ الجبال ولُجّ البحار فجهّز مولاه طارق بن زياد، وسيّره على رأس جيشٍ لفتح الأندلس، فاجتاز بحر الزقاق وتقدّم في بلاد الأندلس، وكان هو أمير ما فتح من بلدان، وذلك سنة اثنتين وتسعين.

وفي سنة ثلاثٍ وتسعين عزل موسى طارقاً عن الأندلس، وجعلها ضمن سلطانه تتبع ولاية إفريقية، ونزل هو أرض الأندلس دعماً لطارق، وراعياً لشؤونها، ومنظماً لأمورها، ومُنهياً ما بقي فيها من جيوبٍ.

وفي سنة ستٍ وتسعين استُدعي موسى بن نصير من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى دمشق، فاستخلف مكانه على الأندلس ولده عبد العزيز بن موسى.

واستخلف على طنجة ولده الثاني عبد الملك للإشراف على شؤون المغرب الأقصى.

واستخلف في القيروان ابنه الأكبر عبد الله للإشراف على شؤون ولاية إفريقية.

الولايات في عهد الوليد بن عبد الملك

سنة	المدينة المنورة	مكة المكرمة	العراق وسائر المشرق	البصرة	الكوفة	خراسان	مصر	إفريقية	الأندلس
				البصرة	الكوفة	خراسان			
٨٦	هشام بن إسماعيل	هشام بن إسماعيل	الحجاج بن يوسف الثقفي	ايوب بن الحكم	زياد بن جرير	قتيبة بن مسلم	عبد الله بن عبد الملك	موسى بن نصير	
٨٧	عمر بن عبد العزيز	عمر بن عبد العزيز		الجراح بن عبد الله	زياد بن جرير	قتيبة بن مسلم	عبد الله بن عبد الملك	موسى بن نصير	
٨٨	عمر بن عبد العزيز	نافع بن علقمة		الجراح بن عبد الله	زياد بن جرير	قتيبة بن مسلم	عبد الله بن عبد الملك	موسى بن نصير	
٨٩	عمر بن عبد العزيز	عمر بن عبد العزيز		الجراح بن عبد الله	زياد بن جرير	قتيبة بن مسلم	عبد الله بن عبد الملك	موسى بن نصير	
٩٠	عمر بن عبد العزيز	عمر بن عبد العزيز		الجراح بن عبد الله	زياد بن جرير	قتيبة بن مسلم	قرة بن شريك	موسى بن نصير	
٩١	عمر بن عبد العزيز	خالد بن عبد الله		الجراح بن عبد الله	زياد بن جرير	قتيبة بن مسلم	قرة بن شريك	موسى بن نصير	
٩٢	عمر بن عبد العزيز	خالد بن عبد الله		الجراح بن عبد الله	زياد بن جرير	قتيبة بن مسلم	قرة بن شريك	موسى بن نصير	طارق بن زياد
٩٣	عمر بن عبد العزيز	خالد بن عبد الله		الجراح بن عبد الله	زياد بن جرير	قتيبة بن مسلم	قرة بن شريك	موسى بن نصير	موسى بن نصير
٩٤	عثمان بن حيان	خالد بن عبد الله		الجراح بن عبد الله	زياد بن جرير	قتيبة بن مسلم	قرة بن شريك	موسى بن نصير	موسى بن نصير
٩٥	عثمان بن حيان	خالد بن عبد الله		يزيد بن أبي كبشة	يزيد بن أبي كبشة	قتيبة بن مسلم	قرة بن شريك	موسى بن نصير	موسى بن نصير
٩٦	عثمان بن حيان	خالد بن عبد الله		يزيد بن المهلب	يزيد بن المهلب	قتيبة بن مسلم	قرة بن شريك	عبد الله بن موسى	عبدالعزيزبنموسى

الفصل الثاني

الفتوحات في عهد الوليد

إذا ذُكر الوليد بن عبد الملك ذكرت الفتوحات الإسلامية الواسعة في موجتها الثانية إذ كانت الموجة الأولى في العهد الراشدي وبلغت قمتها يومذاك في أيام الفاروق عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ثم إن الأحداث الداخلية، والخلافات المحلية، والفرقة التي أثارها الذين أظهروا الإسلام بألسنتهم، وأضمروا الحقد على الإسلام وأهله في قلوبهم وذلك لأن المسلمين كانوا قد قضوا على دولتهم الجاهلية، وعلى معتقداتهم الباطلة فبقي ذلك يحزّ في نفوسهم عصبيةً، ويُثير أحقادهم كلما ذكروا جاهليتهم وباطلهم فينتفضون يُثيرون الخلافات، ويوقدون الشحناء.

وما أن التقى أبناء الأمة المسلمة بعضهم مع بعض، وكان عام الجماعة، وساروا شوطاً حتى عادت الفرقة تعصف بالأمة ولكن تداركتها رحمة الله،

واجتمعت كلمة الأمة ثانيةً ولكن شغل الخوارج الناس عن مهمتهم، وقام عبد الرحمن بن الأشعث بحركته، وشاء الله أن يُقضى على عبث الخوارج، وأن تنتهي حركة ابن الأشعث، وضمّد المسلمون جراحهم، واتجهوا نحو مهمتهم في إيصال الدعوة إلى الناس، وجهاد من يقف في وجه الدعوة والصدّ عن سبيل الله، وقتال من يظلم الناس، وكان عهد الوليد بن عبد الملك.

وإذا ذُكرت الفتوحات في عهد الوليد بن عبد الملك اتجهت الأنظار نحو ثلاث جبهاتٍ: الجبهة الشرقية على تخوم بلاد الترك، والهندوس ووثنيات المشرق، والجبهة الشمالية لقتال الروم والنصارى وأعوانهم من الأرمن والصقالبة، والجبهة الغربية، وكانت لقتال البربر، والقوط، والوندال، إضافةً إلى القتال في البحر سواء أكان ذلك في البحر المتوسط ضد الروم وأعوانهم أم في بحر العرب والمحيط الهندي ضد الهندوس وأتباعهم من القراصنة.

وقد برز في كل جبهة قائدان رفعتهم شجاعتهم، وعلا بهم إخلاصهم حتى شاعت أسماؤهم، ولربما لا يوجد مسلم لم يعرفهم لما قاموا به من توسعة ديار

الإسلام إذ ضمّوا إليها أجزاءً واسعةً، ونشروا الإسلام، وأذلّوا أعداءه، لقد برز في المشرق قتيبة بن مسلم الباهلي في مواجهة الترك الذين كانوا يقيمون في بلاد ما وراء النهر وشمال خراسان، ومحمد بن القاسم الثقفي الذي سار إلى بلاد السند وقاتل الهندوس. وكان في الجبهة الشمالية محمد بن مروان بن الحكم، عم الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي كان أمير الجزيرة، وقاتل الأرمن والروم، ودوّخهم، ومسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد، والذي ما ترك الروم يرتاحون فترةً، ولا يفكرون في نصرٍ ومسلمة بن عبد الملك في وجههم. وارتفع اسم موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد في بلاد المغرب والأندلس، بل ما تُذكر كلمة الأندلس إلا ويتداعى إلى الخاطر مباشرةً اسم هذين البطلين، بل تقرن كلمة الأندلس بهما. فجزى الله خيراً أولئك الرجال الذين عملوا فأخلصوا، وقالوا فصدقوا، ودعوا إلى الجهاد وكانوا في المقدمة.

الجبهة الشرقية:

وتمتدّ على مساحاتٍ شاسعةٍ، وقلنا: إنه قد برز قائدان فيها، أحدهما في بلاد ما وراء النهر حيث كان يعدّ للجهاد في خراسان، والثاني في السند.

أ ـ **خراسان**: قدم أميراً على خراسان سنة ستٍّ وثمانين قتيبة بن مسلم الباهلي[1]، وكان قبل ذلك أميراً على الري[2] أيام عبد الملك بن مروان. أرسل الحجاج إلى خراسان قتيبة فقدمها والمفضّل بن المهلّب[3] يَعْرِضُ الجند يريد أن يغزو (أخرون)

---

(١) قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين، أبو حفص: ولد سنة تسع وأربعين في خلافة معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، وكان أبوه كبير القدر عند يزيد بن معاوية. وبعد وفاة الوليد أراد قتيبة الاستقلال بما تحت يده، وجاهر بنزع الطاعة فقتله وكيع بن حسان التميمي بفرغانة سنة ست وتسعين فيكون قد عاش سبعاً وأربعين سنة. كان شجاعاً، داهيةً، راوية للشعر وعالماً به، وكان عظيم المكانة، مرهوب الجانب، طويل الروية، دمث الأخلاق.

(٢) الري: موقع طهران اليوم.

(٣) المفضّل بن المهلّب بن أبي صفرة الأزدي، أبو غسان: والٍ، من أبطال العرب ووجوههم في عصره. كانت إقامته في البصرة، ولاّه الحجاج خراسان سنة خمسٍ وثمانين فمكث أميراً سبعة أشهر، ثم ولاه سليمان بن عبد الملك جند فلسطين. ثم شهد مع أخيه يزيد قيامه على بني مروان في العراق أيام يزيد بن عبد الملك. فما كان من العرب أضرب بسيفه ولا أحسن تعبئةً للحرب ولا أغشى للناس من المفضّل. فلما قُتل أخوه يزيد وتفرّق الناس عنهما مضى بمن بقي معه إلى واسط، وقد أُصيبت عينه، ثم انتقل إلى (قندابيل) بالسند، فأدركه هلال بن أحوز التميمي، وكان قد سيّره مسلمة بن=

و(شومان). فخطب الناس قتيبة، وحثّهم على الجهاد، وقال: إن الله أَحلّكم هذا المحلّ ليعزّ دينه، ويذبّ بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضةً، والعدوّ وقماً[1]. ووعد نبيّه ﷺ النصر بحديثٍ صادقٍ وكتابٍ ناطقٍ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾[2]. ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب، وأعظم الذُّخر عنده فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢١﴾[3]. ثم أخبر عمن قُتل في سبيله أنه حيّ يرزق فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩﴾[4]

= عبد الملك بن مروان لقتاله، فقاتله المفضّل وأصحابه، وتكاثر عليه أصحاب مسلمة فقتل عام اثنين بعد المائة.

(١) الوقم: الذّل.

(٢) سورة الصف: الآية ٩.

(٣) سورة التوبة: الآيتان ١٢٠، ١٢١.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

فتنجّزوا موعود ربكم ووطّنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم، وإياي والهويني[1].

ثم عَرَضَ قتيبة الجند في السلاح والكُراع، وسار واستخلف بمرو على حربها إياس بن عبد الله بن عمرو، وعلى الخراج عثمان بن السعدي، فلما كان بـ (الطالقان) تلقّاه دهاقين بَلْخ وبعض عظمائهم فساروا معه، فلما قطع النهر تلقّاه تيش الأعور ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب، فدعاه إلى بلاده، فأتاه، وأتى ملك كفتان بهدايا وأموالٍ فدعاه إلى بلاده، فمضى مع تيش إلى الصغانيان فسلّم إليه بلاده، وكان ملك أخرون وشومان قد أساء جوار تيش، وغزاه، وضيّق عليه ـ وأخرون وشومان من طُخارستان ـ فجاءه غشتاسبان فصالحه على فدية أدّاها إليه، فقبلها قتيبة ورضي، ثم انصرف إلى مرو، واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم، وتقدّم جنده فسبقهم إلى مرو، وفتح صالح بعد رجوع قتيبة (باسارا)، وكان معه نصر بن سيّار[2] فأبلى يومئذٍ،

(١) تاريخ الطبري.

(٢) نصر بن سيار بن رافع بن حري بن ربيعة الكناني: ولد سنة ستٍ وأربعين، وهو من الدهاة الشجعان، أمير، شاعر، كان شيخ مضر بخراسان، ووالي بَلْخ، ثم ولي إمرة خراسان سنة=

فوهب له قريةً تدعى (تنجانة)، ثم قدم صالح على قتيبة فاستعمله على (الترمذ).

وقيل: إن قتيبة أقام قبل أن يقطع النهر في هذه السنة على (بَلْخ)، لأن بعضها كان منتفضاً عليه، وقد ناصب المسلمين، فحارب أهلها، فكان فمن سبى امرأة برمك، أبي خالد بن برمك[1]، وكان برمك على

= عشرين ومائة بعد وفاة أسد بن عبد الله القسري، ولاّه هشام بن عبد الملك، وغزا ما وراء النهر ففتح حصوناً، وغنم مغانم كثيرة. وقويت الدعوة العباسية في خراسان فحذّر نصر بن سيار بني أمية وأنذرهم، وتغلّب أبو مسلم الخراساني فخرج نصر بن سيار من مرو سنة ثلاثين ومائة، ورحل إلى نيسابور، فسيّر أبو مسلم إليه قحطبة بن شبيب، فانتقل نصر إلى قومس، وكتب يطلب النجدات فلم تأته فمرض ومات بـ (ساوة) سنة إحدى وثلاثين ومائة.

(١) خالد بن برمك: ولد سنة تسعين، وهو أبو البرامكة، وأول من تمكّن منهم في دولة بني العباس. كان أبوه برمك من مجوس بلْخ. تولى خالد قسمة الغنائم بين الجند في عسكر قحطبة بن شبيب بخراسان، وكان قحطبة يستشيره ويأخذ برأيه. ولما دخل على السفاح لمبايعته ظنّه من العرب، وأقرّه على الغنائم، كما أقره المنصور مدة سنة، ثم صرفه عن الديوان، وقلّده فارس فأقام بطبرستان سبع سنوات، ثم عزله ونكبه، ثم رضي عنه وأمرّه على الموصل، وأخيراً أعاده المهدي إلى فارس، ثم بعثه مع الرشيد في صائفة ١٦٣، ومات بعدها، وكان كريماً.

(النوبهار) فصارت لعبد الله بن مسلم الذي يقال له الفقير، أخي قتيبة بن مسلم، فوقع عليها، وكان به شيء من الجذام، ثم إن أهل بَلْخ صالحوا من غد اليوم الذي حاربهم قتيبة فأمر قتيبة بردّ السبي، فقالت امرأة برمك لعبد الله بن مسلم: يا تازي، إني قد علقت منك، وحضرت عبد الله بن مسلم الوفاة، فأوصى أن يلحق به ما في بطنها، ورُدّت إلى برمك، فذكروا أن ولد عبد الله بن مسلم جاءوا أيام المهدي حين قدم خالد إلى الريّ، فادعوه، فقال لهم مسلم بن قتيبة: إنه لا بد لكم إن استلحقتموه ففعل من أن تُزوّجوه، فتركوه وأعرض عن دعواهم. وكان برمك طبيباً، فداوى بعد ذلك قتيبة من علّةٍ كانت به.

وقيل: إن قتيبة غزا أخْرون وشومان، ثم قَفَل فركب السفن فانحدر إلى آمل، وخلّف الجند فأخذوا طريق بلْخ إلى مرو، وبلغ الحجاج، فكتب إليه يلومه، ويعجّز رأيه في تخليفه الجند، وكتب إليه: إذا غزوت فكن في مُقَدّم الناس، وإذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقتهم.

ويبدو أن غزوات قتيبة هذه إلى أجزاء من خراسان قبل أن يقطع النهر كانت الغاية منها تأمين ظهره قبل أن

يتوغّل في بلاد ما وراء النهر، ودراسة المنطقة ومعرفة تعاون ملوكها بعضهم مع بعضٍ، وقد وجد الفرقة بينهم، وأن بعضهم يبغي على بعضٍ لذا فبأسهم ضعيف، ويمكن التوغّل في ديارهم، كما يمكن مهادنة بعضهم لينتهي من بعضٍ.

جاء نيزك طرخان ملك باذغيس إلى قتيبة وصالحه على ألا يدخل قتيبة باذغيس، وذُكر أن نيزك طرخان كان في يده أسارى من المسلمين، فكتب إليه قتيبة حين صالح ملك شومان فيمن بيديه من أسرى المسلمين أن يطلقهم، وتهدّده في كتابه، فخافه نيزك، فأطلق الأسرى، وبعث بهم إلى قتيبة، فوجّه إليه سليماً الناصح مولى عبيد الله بن أبي بكرة يدعوه إلى الصلح وإلى أن يُؤمّنه، وكتب إليه كتاباً يحلف فيه بالله: لئن لم يقدم عليه ليغزونّه، ثم ليطلبنّه حيث كان، لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك، فقدم سُليم على نيزك بكتاب قتيبة ـ وكان يستنصحه ـ فقال له: يا سُليم ما أظنّ عند صاحبك خيراً، كتب إليّ كتاباً لا يكتب إلى مثلي، قال له سُليم: يا أبا الهيّاج، إن هذا رجل شديد في سلطانه، سهل إذا سوهل، صعب إذا عوسر، فلا يمنعك منه غِلظة كتابه إليك، فما أحسن حالك عنده وعند جميع

مضر، فقدم نيزك مع سُليم على قتيبة فصالحه أهل باذغيس في سنة سبعٍ وثمانين على ألا يدخل باذغيس.

لما صالح قتيبة نيزك أقام إلى وقت الغزو، ثم غزا بيكند، فسار من مرو وأتى مرو الروذ، ثم أتى آمل، ثم مضى إلى زَمّ فقطع النهر، وسار إلى بيكند، وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر، يقال لها: مدينة التجار على رأس المفازة من بخارى، فلما نزل بعَقْوَتهم استنصروا الصُّغد، واستمّدوا من حولهم، فأتوهم في جمعٍ كثيرٍ، وأخذوا بالطريق، فلم ينفذ لقتيبة رسول، ولم يصل إليه رسول، ولم يجرِ له خبر شهرين، وأبطأ خبره على الحجاج، فأشفق الحجاج على الجند، فأمر الناس بالدعاء في المساجد، وكتب بذلك إلى الأمصار، وهم يقتتلون في كل يوم.

وكان لقتيبة عين يقال له: (تنذر) من العجم،، فأعطاه أهل بخارى الأعلى مالاً على أن يفثأ عنهم قتيبة، فأتاه، فقال: أَخْلني، فنهض الناس، واحتبس قتيبة ضرار بن حصين الضبيّ، فقال (تنذر): هذا عامل يقدم عليك، وقد عُزِل الحجاج فلو انصرفت بالناس إلى مرو، فدعا قتيبة مولاه فقال له: اضرب عنق تنذر، فقتله ثم قال لضرار: لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك،

وإني أُعطي الله عهداً إن ظهر هذا الحديث من أحدٍ حتى تنقضي حربنا هذه لأُلحقنّك به، فاملك لسانك، فإن انتشار هذا الحديث يفتّ في أعضاد الناس. ثم أذن للناس.

دخل الناس فراعهم قتل تنذر، فوجموا وأطرقوا، ففال قتيبة: ما يروعكم من قتل عبدٍ أحانه الله، قالوا: كنا نظنّه ناصحاً للمسلمين، قال: بل كان غاشّاً فأحانه الله بذنبه، فقد مضى لسبيله، فاغدوا على قتال عدوّكم، والقوهم بغير ما كنتم تلقوهم به، فغدا الناس متأهّبين، وأخذوا مصافهم، ومشى قتيبة فحضّ أهل الرايات، فكانت بين الناس مشاولة[1]، ثم زحفوا والتقوا، وأخذت السيوف مأخذها، وأنزل الله على المسلمين الصبر، فقاتلوهم حتى زالت الشمس، ثم منح الله المسلمين أكتافهم، فانهزموا يريدون المدينة، واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول فتفرّقوا، وركبهم المسلمون قتلاً وأسراً كيف شاءوا، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة، وهم قليل، فوضع قتيبة الفَعَلة في أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم، واستعمل عليهم رجلاً من بني قتيبة.

---

(١) المشاولة: المقاتلة بالرماح.

وارتحل عنهم يريد الرجوع، فلما سار مرحلةً أو ثنتين، وكان منهم على خمسة فراسخ نقضوا وكفروا، فقتلوا العامل وأصحابه، وجدّعوا أنوفهم وآذانهم، وبلغ قتيبة فرجع إليهم، وقد تحصّنوا فقاتلهم شهراً، ثم وضع الفَعَلة في أصل المدينة فعلّقوها بالخشب، وهو يريد إذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فتنهدم، فسقط الحائط وهم يعلّقونه فقتل أربعين من الفعلة، فطلبوا الصلح، فأبى وقاتلهم، فظفر بهم عَنوةً، فقتل من كان فيها من المقاتلة، وكان فيمن أُخذوا في المدينة رجل أعور كان هو الذي استجاش الترك على المسلمين، فقال لقتيبة: أنا أفدي نفسي، فقال له سليم الناصح: ما تبذل؟ قال: خمسة آلاف حريرة صينية قيمتها ألف ألف، فقال قتيبة: ما ترون؟ قالوا: نرى أن فداءه زيادة في غنائم المسلمين، وما عسى أن يبلغ من كيد هذا، قال: لا والله لا تروّع بك مسلمة أبداً، وأمر به فقُتل.

ولما فتح قتيبة بيكند أصاب المسلمون فيها من آنية الذهب والفضة ما لا يحصى، فولى الغنائم والقَسْم عبد الله بن وألان العدوي أحد بني ملكان ـ وكان قتيبة يسميه الأمين ابن الأمين ـ وإياس بن بَيْهَس الباهلي، فأذابا الآنية والأصنام فرفعاه إلى قتيبة، ورفعا إليه خبث

ما أذابا فوهبه لهما، فأعطيا به أربعين ألفاً، فأعلماه، فرجع فيه، وأمرهما أن يذيباه، فأذاباه فخرج منه خمسون ومائة ألف مثقال ـ أو خمسون ألف مثقال ـ. وأصابوا في بيكند شيئاً كثيراً. وصار في أيدي المسلمين من بيكند شيء لم يصيبوا مثله بخراسان. ورجع قتيبة إلى مرو، وقوي المسلمون، فاشتروا السلاح والخيل، وجُلبت إليهم الدواب، وتنافسوا في حسن الهيئة والعُدّة، وغالوا بالسلاح حتى بلغ الرمح سبعين، وقال الكميت:

ويوم بيكند لا تحصى عجائبه
وما بُخاراء مما أخطأ العدد

وكان في الخزائن سلاح وآلة من آلة الحرب كثيرة، فكتب قتيبة إلى الحجاج يستأذنه في دفع ذلك السلاح إلى الجند، فأذن له، فأخرجوا ما كان في الخزائن من عدّة الحرب وآلة السفر، فقسّمه في الناس، فاستعدّوا، فلما كان أيام الربيع ندب الناس، وقال: إني أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزاد وأنتقل بكم قبل أن تحتاجوا إلى الإدفاء، فسار في عُدّةٍ حسنةٍ من الدواب والسلاح، فأتى آمُل، ثم من زَمّ إلى بخارى، فأتى نومُشَكَث ـ وهي من بخارى فصالحوه.

كان قتيبة قد استخلف على مرو أخاه يسار بن

مسلم، وبعد أن صالح أهل (نومُشَكَث) سار إلى (راميثنه) فصالحه أهلها، فانصرف عنهم، وزحف إليه الترك، ومعهم الصُّغد، وأهل فرغانة، فاعترضوا المسلمين في طريقهم، فلحقوا عبد الرحمن بن مسلم الباهلي، وهو على الساقة، بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميل، فلما قربوا أرسل رسولاً إلى قتيبة يخبره، وغشيه الترك فقاتلوه، وأتى الرسول قتيبة فرجع بالناس، فانتهى إلى عبد الرحمن وهو يقاتلهم، وقد كاد الترك ينتصرون عليهم، فلما رأى الناس قتيبة طابت أنفسهم فصبروا، وقاتلوهم إلى الظهر، وأبلى يومئذٍ نيزك وهو مع قتيبة، فهزم الله الترك، وفلّ جمعهم، ورجع قتيبة يريد مرو، وقطع النهر من الترمذ يريد بلْخ، ثم أتى مرو.

وقيل: إن الترك كان عليهم (كورمغانون) التركي ابن أخت ملك الصين، وكان عدد من معه من الجند مائتي ألف، فأظهر الله المسلمين عليهم.

ولما كان قتيبة بالفارياب في طريق العودة أتاه كتاب الحجاج أن رِد (وردان خُداه)[1]، فرجع قتيبة سنة تسعٍ وثمانين، فأتى (زَمّ)، فقطع النهر، فلقيه الصُّغد

(١) وردان خداه: هو ملك بخارى.

وأهل (كِسّ)، و(نسف) في طريق المفازة، فقاتلوه، فظفر بهم، ومضى إلى بخارى، فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان، فلقوه بجمع كثير، فقاتلهم يومين وليلتين، ثم أعطاه الله الظفر عليهم.

وقيل: إن قتيبة غزا وردان خداه ملك بخارى سنة تسعٍ وثمانين فلم يُطِقْه ولم يظفر من البلد بشيءٍ، فرجع إلى مرو، وكتب إلى الحجاج بذلك، فكتب إليه الحجاج: أن صوّرها لي، فبعث إليه بصورتها، فكتب إليه الحجاج: أن أرجع إلى مراغتك[1] فتب إلى الله مما كان منك، وأتها من مكان كذا.

وقيل: إن الحجاج كتب له: أن كس بكس، وانسف نسف، ورِذْ وردان، وإياك والتحويط، ودعني من بنيات الطريق[2].

فلما ورد كتاب الحجاج على قتيبة خرج قتيبة إلى بخارى سنة تسعين غازياً، فأرسل وردان خُداه إلى الصُّغد والترك ومن حولهم يستنصر بهم، فأتوه، وقد سبق إليها قتيبة فحصرهم، فلما جاءتهم أمدادهم خرجوا إليهم

---

(١) مراغتك: يقصد بخارى.

(٢) بنيات الطريق: تعرجات الدروب.

ليقاتلوهم. فتقدّم الأزد ولكنهم تراجعوا ووصل الترك عسكر قتيبة فانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردّوهم إلى مواقفهم.

ودفع قتيبة بني تميم فأخذ وكيع بن حسان اللواء، وتقدّم هريم بن أبي طحمة المجاشعي الخيل. فحجز نهر بين المسلمين وأعدائهم، فعبر هريم بالخيل، وعبر وكيع ببعض من معه، وأحجم الباقون، وقد أعيى التعب من عبر فأراحهم وكيع، ثم نهض بالناس وشدّوا على العدوّ، وشاغل هريم بالخيل مجنبتي الخصم فانهزم الأعداء بإذن الله. وجرح يومئذٍ خاقان الترك وابنه، ورجع قتيبة إلى مرو. وكتب إلى الحجاج بذلك.

وبعد نصر قتيبة على أهل بخارى هابه الصغد، فرجع طرخون ملك الصغد ومعه فارسان حتى وقف قريباً من عسكر قتيبة وبينهما نهر بخارى، فسأل أن يبعث إليه رجلاً يكلمه، فأمر قتيبة رجلاً فدنا منه فسألهم طرخون الصلح على فديةٍ يؤديها إليهم، فأجابه قتيبة إلى ما طلب، وصالحه وأخذ منه رهناً حتى يبعث إليه بما صالحه إليه، وانصرف طرخون إلى بلاده، ورجع قتيبة ومعه نيزك.

غدر نِيزك:

لما قفل قتيبة راجعاً من بخارى ومعه نيزك وقد ذعر ما قد رأى من الفتوح، وخاف قتيبة، فقال لأصحابه وخاصّته: متهم أنا مع هذا، ولست آمنه، وذلك أن العربي بمنزلة الكلب، إذا ضربته نبح، وإذا أطعمته بصبص واتّبعك، وإذا غزوته ثم أعطيته شيئاً رضي، ونسي ما صنعت به، وقد قاتله طرخون مراراً، فلما أعطاه فديةً قبلها ورضي، وهو شديد السطوة فاجر، فلو استأذنت ورجعت كان الرأي، قالوا: استأذنه. فلما كان قتيبة بـ (آمل) استأذنه في الرجوع إلى طُخارستان، فأذن له، فلما فارق عسكره متوجّهاً إلى بلْخ قال لأصحابه: أَغِذّوا السير، فساروا سيراً شديداً حتى أتوا النوبهار، فنزل يصلّي فيه ويتبرك به. وقال لأصحابه: لا أشكّ أن قتيبة قد ندم حين فارقنا عسكره على إذنه لي، وسيقدم الساعة رسوله على المغيرة بن عبد الله يأمره بحبسي، فأقيموا ربيئةً تنظر، فإذا رأيتم الرسول قد جاوز المدينة وخرج من الباب فإنه لا يبلغ البروقان حتى نبلغ طخارستان فيبعث المغيرة رجلاً فلا يدركنا حتى ندخل شِعب خُلّم ففعلوا.

أقبل رسول من قبل قتيبة إلى المغيرة يأمره بحبس

نيزك، فلما مر الرسول إلى المغيرة وهو بالبروقان - ومدينة بلْخ يومئذٍ خراب - ركب نيزك وأصحابه فمضوا، وقدم الرسول على المغيرة فركب بنفسه في طلبه، فوجده قد دخل شِعب خُلْم، فانصرف المغيرة، وأظهر نيزك الخلع.

كتب نِيزك إلى أصبهبذ بلْخ، وإلى باذام ملك مرو الروذ، وإلى سهرب ملك الطالقان، وإلى ترسل ملك الفارياب، وإلى الجوزجاني ملك الجوزجان يدعوهم إلى خلع قتيبة، فأجابوه، وواعدهم الربيع أن يجتمعوا ويغزوا قتيبة. وكتب إلى كابل شاه يستظهر به، وبعث إليه بثَقَله وماله، وسأله أن يأذن له إن اضطر إليه أن يأتيه ويؤمنه في بلاده، فأجابه إلى ذلك، وضمّ ثَقَله.

وكان جبغويه ملك طخارستان ضعيفاً، واسمه الشذّ، فأخذه نيزك فقيّده بقيدٍ من ذهبٍ مخافة أن يشغب عليه. - وجبغويه ملك طخارستان ونيزك من عبيده - فلما استوثق منه وضع عليه الرقباء، وأخرج عامل قتيبة من بلاد جبغويه، وكان العامل محمد بن سُليم الناصح، وبلغ قتيبة خلعه قبل الشتاء، وقد تفرّق الجند فلم يبق مع قتيبة إلا أهل مرو، فبعث أخاه عبد الرحمن بن مسلم إلى بَلْخ في اثني عشر ألفاً إلى البروقان، وقال: أقم

بها، ولا تحدث شيئاً، فإذا حسر الشتاء فعسكر وسر نحو طخارستان، واعلم أني قريب منك. فسار عبد الرحمن فنزل البروقان، وأمهل قتيبة حتى إذا كان آخر الشتاء كتب إلى أبرشهر، وأبيورد، وسرخس، وأهل هراة ليقدموا قبل أوانهم الذي كانوا يقدمون عليه فيه.

لما هرب نيزك من قتيبة ودخل شِعب خُلْم الذي يأخذ إلى طُخارستان علم ملك الطالقان أنه لا طاقة له بقتيبة فهرب، وسار قتيبة إلى الطالقان فأوقع بأهلها، وقتل منهم مقتلةً عظيمةً لأنهم وملكهم قد استجابوا للنهوض مع نيزك لحرب قتيبة.

لما قدمت البعوث التي أمرها قتيبة بالقدوم إليه سار بالناس إلى مرو الروذ، واستخلف على الحرب حماد بن مسلم، وعلى الخراج عبد الله بن الأهتم، وبلغ مرزبان مرو الروذ إقباله إلى بلاده، فهرب، وقدم قتيبة مرو الروذ فأخذ ابنين له فقتلهما وصلبهما، ثم سار إلى الطالقان فقام صاحبها ولم يحاربه، فكفّ عنها، وفيها لصوص، فقتلهم قتيبة وصلبهم، واستعمل على الطالقان عمرو بن مسلم، ومضى إلى الفارياب، فخرج إليها ملكها مُذْعِناً مُقرّاً بالطاعة، فرضي عنه، ولم يقتل بها أحداً، واستعمل عليها رجلاً من باهلة. وبلغ صاحب

الجوزجان خبرهم، فترك أرضه، وخرج إلى الجبال هارباً، وسار قتيبة إلى الجوزجان فلقيه أهلها سامعين مطيعين، فقبل منهم، ولم يقتل فيها أحداً، واستعمل عليها عامر بن مالك الحماني، ثم أتى بلْخ فلقيه الأصبهبذ في أهل بلخ، فدخلها فلم يقم بها إلا يوماً واحداً.

ثم مضى يتبع عبد الرحمن حتى أتى شِعب خُلْم، وقد مضى نيزك فعسكر بـ (بغلان)، وخلّف مقاتلةً على فم الشِعب ومضايقه يمنعونه، ووضع مقاتلةً في قلعةٍ حصينةٍ من وراء الشِعب، فأقام قتيبة أياماً يقاتلهم على مضيق الشِعب لا يقدر منهم على شيءٍ، ولا يقدر على دخوله، وهو مضيق، الوادي يجري وسطه، ولا يعرف طريقاً يفضي به إلى نيزك إلا الشعب أو مفازةً لا تحتمل العساكر، فبقي مُتلدِّداً يلتمس الحيل.

وقتيبة على تلك الحال إذ قدم عليه الرؤب خان ملك الرؤب وسمنجان، فاستأمنه على أن يدلّه على مدخل القلعة التي وراء هذا الشعب، فآمنه قتيبة وأعطاه ما سأله، وبعث معه رجالاً ليلاً، فانتهى بهم إلى القلعة التي من وراء شِعب خُلْم، فطرقوهم وهم آمنون فقتلوهم، وهرب من بقي منهم، ومن كان بالشِعب،

فدخل قتيبة والناس الشعب، فأتى القلعة ثم مضى إلى سمنجان، ونيزك ببغلان بعينٍ تدعى فَنج جاه، وبين سمنجان وبغلان مفازة ليست بالشديدة.

أقام قتيبة بـ (سمنجان) أياماً، ثم سار إلى نيزك، وقدم أخاه عبد الرحمن، وبلغ نيزك فارتحل من منزله حتى قطع وادي فرغانة، ووجّه ثَقَله وأمواله إلى كابل شاه، ومضى حتى ترك الكرز وعبد الرحمن بن مسلم يتبعه، فنزل عبد الرحمن وأخذ بمضائق الكرز، ونزل قتيبة اسكيمشت، بينه وبين عبد الرحمن فرسخان. فتحرّك نيزك في الكرز وليس إليه مسلك إلا من وجهٍ واحدٍ، وذلك الوجه صعب لا تُطيقه الدواب فحصره قتيبة شهرين حتى قلّ ما في يد نيزك من الطعام، وأصابهم الجُدَريّ، وجُدِّر جغبويه، وخاف قتيبة الشتاء، فدعا سُليماً الناصح، فقال: انطلق إلى نيزك، واحتل لأن تأتي به بغير أمان، فإن أعياك وأبى فآمنه، واعلم أني إن عاينتك وليس هو معك صلبتك، فاعمل لنفسك. قال: فاكتب لي إلى عبد الرحمن لا يخالفني، قال: نعم. فكتب له إلى عبد الرحمن فقدم عليه، فقال له: ابعث رجالاً فليكونوا على فم الشِعب، فإذا خرجت أنا ونيزك فليعطفوا من ورائنا فيحولوا بيننا وبين الشِعب. فبعث

عبد الرحمن خيلاً فكانوا حيث أمرهم سُليم، ومضى سُليم وقد حمل معه من الأطعمة التي تبقى أياماً والأخبصة أوقاراً حتى أتى نيزك، فقال له نيزك: خذلتني يا سُليم، قال: ما خذلتك، ولكنك عصيتني وأسأت بنفسك، خلعت وغدرت، قال: فما الرأي؟ قال: الرأي أن تأتيه أمحكته، وليس ببارحٍ موضعه هذا، قد اعتزم على أن يشتو بمكانه، هلك أو سلم. قال: آتيه على غير أمانٍ، قال: ما أظنّه يؤمّنك لما في قلبه عليك، فإنك قد ملأته غيظاً، ولكني أرى ألا يعلم بك حتى تضع يدك في يده، فإني أرجو إن فعلت ذاك أن يستحيي ويعفو عنك، قال: أترى ذلك؟ قال: نعم، قال: إن نفسي لتأبي هذا، وهو إن رآني قتلني، فقال له سُليم: ما أتيتك إلا لأشير عليك بهذا، ولو فعلتَ لرجوتُ أن تسلم وأن تعود حالك عنده إلى ما كانت، فأما إذ أبيت فإني منصرف. قال: فنغديك إذن، قال: إني لأظنّكم في شغل عن تهيئة الطعام، ومعنا طعام كثير.

ودعا سُليم بالغداء فجاءوا بطعامٍ كثيرٍ لا عهد لهم بمثله منذ حصروا، فانتهبه الأتراك، فغمّ ذلك نيزك، وقال سُليم: يا أبا الهيّاج، أنا لك من الناصحين، أرى أصحابك قد جُهدوا، وإن طال بهم الحصار، وأقمت

على حالك لم آمنهم أن يستأمنوا بك، فانطلق وأت قتيبة، قال: ما كنت لآمنه على نفسي، ولا آتيه على غير أمانٍ، فإن ظنّي به أنه قاتلي، وإن آمنني، ولكن الأمان أعذر لي وأرجى، قال: فقد آمنك أفتتهمني، قال: لا، قال: فانطلق معي، قال له أصحابه: اقبل قول سُليم، فلم يكن ليقول إلا حقاً، فدعا بدوابه وخرج مع سُليم، فلما انتهى إلى الدرجة التي يهبط منها إلى قرار الأرض قال: يا سليم منِ كان لا يعلم متى يموت فإني أعلم متى أموت، أموت إذا عاينت قتيبة، قال: كلا، أيقتلك مع الأمان، فركب ومضى معه جغبويه، وقد برأ من الجدريّ ومعه كذلك ولدا أخيه، وهما: (صول) و (عثمان) وكذلك (صول طرخان) خليفة جغبويه، و (خنس طرخان) صاحب شرطته، قال: فلما خرج من الشِعب عطفت الخيل التي خلّفها سُليم على فوهة الشِعب، فحالوا بين الأتراك وبين الخروج، فقال نيزك لسُليم: هذا أول الشر، قال: لا تفعل، تخلّف هؤلاء عنك خير لك.

وأقبل سُليم ونيزك ومن خرج معه حتى دخلوا على عبد الرحمن بن مسلم، فأرسل رسولاً إلى قتيبة يعلمه، فأرسل قتيبة عمر بن أبي مِهْزَم إلى عبد الرحمن: أن أقدم بهم عليّ، فقدم بهم عبد الرحمن عليه، فحبس

أصحاب نيزك، ودفع نيزك إلى ابن بسّام الليثي، وكتب إلى الحجاج يستأذنه في قتل نيزك، فجعل ابن بسام نيزك في قبّته، وحفر حول القبة خندقاً، ووضع عليه حرساً. ووجّه قتيبة معاوية بن عامر بن علقمة العُليمي فاستخرج ما كان في الكرز من متاعٍ ومن كان فيه، وقدم به على قتيبة فحبسهم ينتظر كتابَ الحجاج فيما كتب إليه، فأتاه كتاب الحجاج بعد أربعين يوماً يأمره بقتل نيزك، قال: فدعا به، فقال: هل لك عندي عقد، أو عند عبد الرحمن، أو عند سُليم؟ قال: لي عند سُليم، قال: كذبت، وقام فدخل وردّ نيزك إلى حبسه، فمكث ثلاثة أيام لا يظهر للناس، فقام المهلّب بن إياس العدويّ، وتكَلم في أمر نيزك، فقال بعضهم: ما يحلّ له أن يقتله، وقال بعضهم: ما يحلّ له تركه، وكثرت الأقاويل فيه.

وخرج قتيبة اليوم الرابع فجلس وأذن للناس، فقال: ما ترون في قتل نيزك؟ فاختلفوا، فقال قائل: اقتله. وقال قائل: أعطيته عهداً فلا تقتله. وقال قائل ما نأمنه على المسلمين. ودخل ضرار بن حصين الضبيّ، فقال قتيبة: ما تقول يا ضرار؟ قال: إني سمعتك تقول: أعطيت الله عهداً إن أمكنك منه أن تقتله، فإن لم تفعل لا ينصرك الله عليه أبداً، فأطرق قتيبة طويلاً، ثم قال:

والله لو لم يبق من أجلي إلا ثلاث كلمات لقلت: اقتلوه، اقتلوه، اقتلوه، فأرسل إلى نيزك فأمر بقتله وأصحابه فقُتل مع سبعمائةٍ.

وقتل قتيبة نيزك بيده، ومنّ على جغبويه، وبعث به إلى الوليد، فبقي بالشام حتى مات الوليد. ورجع قتيبة إلى مرو، واستعمل أخاه عبد الرحمن على بلْخ.

وطرد ملك شومان عامل قتيبة ومنع الفدية التي صالح عليها قتيبة، فبعث إليه قتيبة من ينصحه بالعدول عما أقدم عليه فأبى، بل قتل الترك رسولي قتيبة. وبلغ ذلك قتيبة، فسار إليهم بنفسه، وأخذ طريق بلْخ، فلما أتاها قدّم أخاه عبد الرحمن بن مسلم، واستعمل على بلْخ عمرو بن مسلم، وكان ملك شومان صديقاً لصالح بن مسلم، فأرسل إليه صالح رجلاً يأمره بالطاعة، ويضمن له رضا قتيبة إن رجع إلى الصلح، فأبى وقال لرسول صالح: ما تخوّفني به من قتيبة، وأنا أمنع الملوك حصناً، وأنا أشدّ الناس قوساً، وأشدهم رمياً فلا تبلغ نشابتي نصف حصني، فما أخاف من قتيبة، فمضى قتيبة من بلْخ فعبر النهر، ثم أتى شومان وقد تحصّن ملكها، فوضع عليه المجانيق، ورمى حصنه فهشمه، فلما خاف أن يظهر عليه، ورأى ما نزل به جمع

ما كان له من مالٍ وجوهر فرمى به في عين في وسط القلعة لا يُدرك قعرها.

ثم فتح ملك شومان القلعة وخرج فقاتلهم حتى قتل، وأخذ قتيبة القلعة عَنوةً، فقتل المقاتلة وسبى الذرية، ثم رجع إلى باب الحديد فأجاز منه إلى كِسّ ونَسَف ففتحهما. وسرّح منهما أخاه عبد الرحمن بن مسلم إلى الصُّغد إلى طرخون، فسار عبد الرحمن حتى نزل بمرجٍ قريباً منهم، وذلك في وقت العصر، فقبض عبد الرحمن من طرخون شيئاً كان قد صالحه عليه قتيبة، وانصرف عبد الرحمن إلى قتيبة وهو ببخارى، فرجعوا إلى مرو.

وعزل الصُّغد طرخون عن ملكه إذ قالوا له: إنك قد رضيت بالذل، واستطبت الجزية، وأنت شيخ كبير فلا حاجة لنا بك. قال: فولّوا من أحببتم. فولّوا غَوْزَك وسجنوا طرخون.

واتجه قتيبة نحو خوارزم شاه فجرّد الصلح معه، وأعانه على خصومه، وعلى أخيه الذي استبدّ بملكه فقتلهم خوارزم شاه، واصطفى أموالهم، وبعث بها إلى قتيبة.

فتح سمرقند:

بعد أن صالح قتيبة صاحب خوارزم، ورجع باتجاه مرو قام إليه المجِشّر بن مُزاحم السلمي، وانفرد به فقال له: إن أردت الصُّغد يوماً من الدهر فالآن، فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام. قال: أشار عليك بهذا أحد؟ قال: لا، قال: فأعلمته أحداً؟ قال: لا، قال: فاكتم ولا تتكلم بهذا أبداً. فأقام قتيبة يومه ذلك، فلما أصبح من الغد دعا أخاه عبد الرحمن فقال له: سِرْ في الفرسان والرماة وقدّم الأثقال نحو مرو، وبعد أن سار عبد الرحمن يوماً كتب إليه قتيبة: إذا أصبحت فوجّه الأثقال إلى مرو، وسر بالفرسان والرماة نحو الصغد، واكتم الأخبار، فإني بالأثر.

فلما وصل كتاب قتيبة إلى عبد الرحمن، وأصبح الصباح أمر عبد الرحمن أصحاب الأثقال أن يمضوا إلى مرو، وسار حيث أمره أخوه، وخطب قتيبة الناس فقال: إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقتِ الغزو فيه غير ممكن، وهذه الصغد شاغرة بِرجْلِها، قد نقضوا العهد الذي كان بيننا، منعونا ما كنا صالحنا عليه طرخون، وصنعوا به ما بلغكم، وقال الله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ

عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾[1]. فسيروا على بركة الله، فإني أرجو أن يكون خوارزم والصغد كبني النضير وبني قريظة، وقال الله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾[2].

وصل قتيبة إلى الصغد وقد سبقه إليها أخوه عبد الرحمن بن مسلم في عشرين ألفاً، وقدم عليه قتيبة في أهل خوارزم وبخارى بعد ثلاثة أيام من نزول عبد الرحمن بهم، فقال قتيبة: إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾[3]، فحصرهم شهراً، فقاتلوا في حصارهم مراتٍ من وجهٍ واحدٍ.

وخاف أهل الصغد الحصار الطويل فكتبوا إلى ملك الشاش، وملك فرغانة: إن العرب إن ظفروا بنا عادوا إليكم بمثل ما أتونا به فانظروا لأنفسكم. فأجمعوا على أن يأتوهم، وأرسلوا إليهم: أرسِلوا من يُشغِلُهم حتى نُبيّت عسكرهم.

انتخب الصغد فرساناً من أبناء المرازبة والأساورة والأشداء والأبطال فوجّهوهم وأمروهم أن يُبيّتوا

---

(1) سورة الفتح: الآية ١٠.
(2) سورة الفتح: الآية ٢١.
(3) سورة الصافات: الآية ١٧٧.

عسكرهم، وجاءت عيون المسلمين فأخبروهم. فانتخب قتيبة ستمائة من أهل النجدة واستعمل عليهم أخاه صالح بن مسلم فجعلهم في الطريق الذي يخاف أن يؤتى منه، وبعث صالح بن مسلم عيوناً يأتونه بخبر القوم، ونزل على بعد فرسخين منهم، فرجعت إليه عيونه فأخبروه أنهم يصلون إليه من ليلتهم، ففرّق صالح خيله ثلاث فرق، فجعل كميناً في موضعين، وأقام على قارعة الطريق، وطرقهم المشركون ليلاً، وهم لا يعلمون بمكان صالح، وآمنون في أنفسهم من أن يلقاهم أحد من العسكر. فلم يعلموا بصالح حتى غشوه. فشدّوا عليه حتى إذا اختلفت الرماح خرج الكمينان فاقتتلوا، فقُتل المشركون فلم ينجُ منهم إلا نفر يسير، وأُخذ عدد منهم أسارى، فسئل الأسرى عمن قتل منهم، فقالوا: إن كل ما قُتل منهم إنما هو من أبناء الملوك والقادة والسادة والأبطال الأشداء. وأخذ المسلمون ما كان مع المشركين من جيد السلاح، وكريم المتاع، ومناطق الذهب، والدواب الجيدة فنفل قتيبة عسكر هذه الكتيبة كل ما حصلت عليه من أعدائها. وحاصر قتيبة سمرقند، ونصب عليها المجانيق، وقد أبلى من معه من أهل خوارزم وبخارى بلاءً حسناً.

وأخذت العصبية غوزك، فأرسل إلى قتيبة يقول له: إنما تقاتلني بأبناء الأعاجم أمثالي فأخرج إليّ العرب. فزحف قتيبة بالرجال الأشداء، وأخذت المجانيق تقصف المدينة، واضطر غوزك أن يصالح قتيبة على دفع ألفي ألف ومائتي ألف كل عام، وأن يعطيه مع تلك ثلاثين ألف رأس ليس فيهم صبيّ ولا شيخ ولا عيب، وأن يخلي المدينة لقتيبة فلا يكونوا لهم فيها مقاتل، وأن يبني له فيها مسجداً فيدخل ويصلي، ويضع له فيه منبر فيخطب عليه.

أمر قتيبة بالأصنام فجُمعت، ووضعت بين يديه، فأمر بحرقها، فقالت الصغد: إن فيها أصناماً من حرقها هلك، فقال قتيبة أنا أحرقها بيدي، فجاء غَوْزَك فجثا بين يدي قتيبة وقال: أيها الأمير إن شكرك عليّ واجب. لا تعرض لهذه الأصنام. فدعا قتيبة بالنار فأحرقها فكان فيها كميات كبيرة من الذهب والفضة قُدّرت بخمسين ألف مثقال.

وأصاب قتيبة بالصغد جاريةً من ولد يزدجرد فبعث بها إلى الحجاج، فبعث بها الحجاج إلى الوليد، فولدت له يزيد بن الوليد.

وبعد فتح سمرقند ارتحل قتيبة راجعاً إلى مرو،

واستخلف على سمرقند أخاه عبد الله بن مسلم، وترك عنده جنداً كثيفاً.

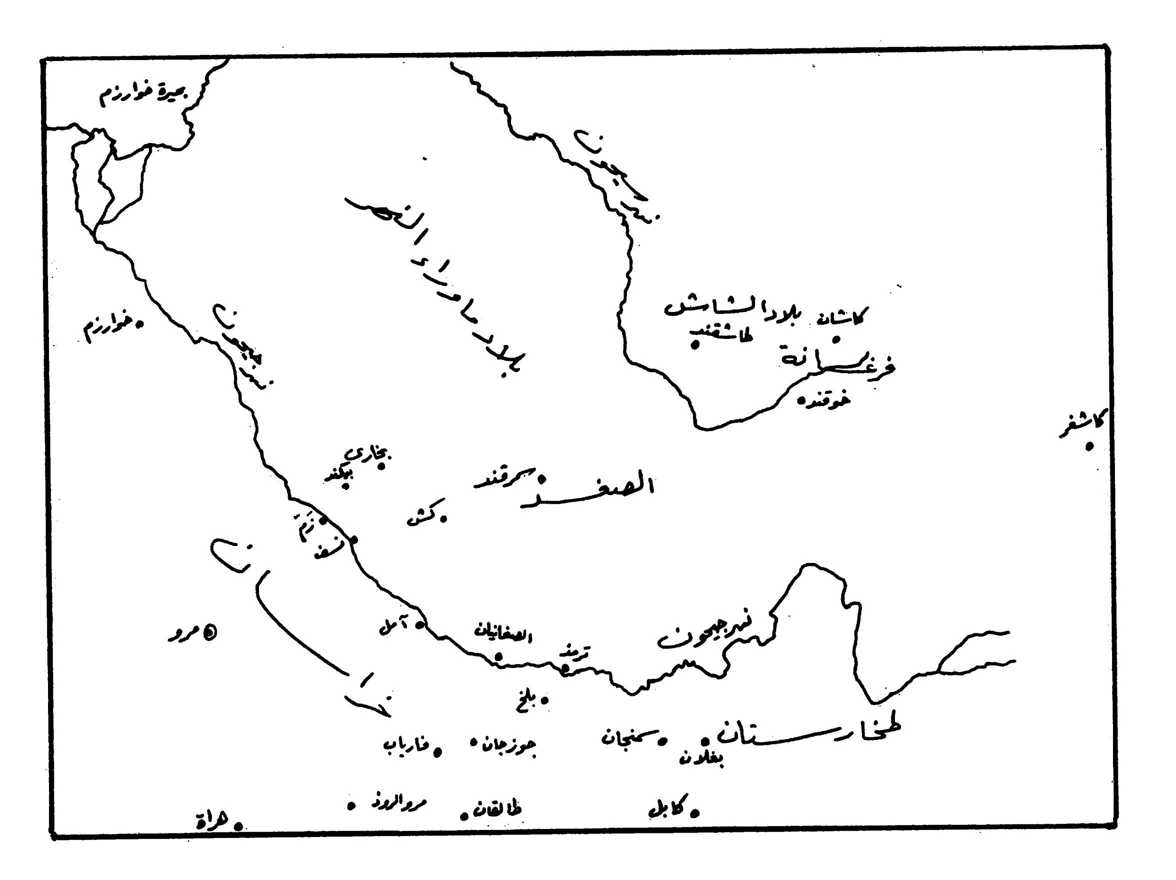
فتح فرغانة وبلاد الشاش:

غزا قتيبة سنة أربعٍ وتسعين، فخرج من مرو، واتجه شرقاً، فلما قطع نَهر جيحون فرض على أهل بخارى، ونسف، وكِسّ، وخوارزم عشرين ألف مقاتل، فساروا معه حتى بلاد الصغد، ومن هناك وجّههم إلى الشاش، أما هو فقد سار إلى فرغانة، وتوجّه إلى خوقند، فجمع له أهلها، فالتقى الجمعان، وكان القتال كل يومٍ والنصر يحالف المسلمين، فدخلوا خوقند، ومنها سار قتيبة إلى مدينة كاشان، وأتاه الجنود الذين وجّههم إلى الشاش، وقد فتحوها. وبعث الحجاج إلى محمد بن القاسم أن يرسل قوةً من عنده إلى قتيبة ففعل، وكذا بعث الحجاج جيشاً من العراق إلى قتيبة لقتال الشاش فما وصلت القوة حتى جاءه خبر موت الحجاج بن يوسف الثقفيّ في شهر شوال سنة خمسٍ وتسعين.

فتح كاشغر:

غزا قتيبة سنة ستٍ وتسعين ونيّته التوجّه شرقاً،

فقطع نهر جيحون، ووصل إلى فرغانة، وهناك أتاه موت الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأرسل قتيبة من فتح كاشغر، وغنم غنائم كثيرة، وعاد إلى قتيبة فتابع قتيبة سيره نحو الشرق فلما اقترب من الصين ووصل خبره إلى ملكها، كتب إليه ملك الصين أن ابعث إلينا رجلاً من أشراف من معكم يخبرنا عنكم، ونسائله عن دينكم فاختار عشرةً من رجالات القبائل، وجعل عليهم هبيرة بن الشمرج الكلابي، وقال له: يا هبيرة كيف أنت صانع؟ قال: أصلح الله الأمير، قد كفيت الأدب، وقل ما شئت أقله، وآخذ به، قال: سيروا على بركة الله، وبالله التوفيق. لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت ألا أنصرف حتى أطأ بلادهم، وأختم ملوكهم، وأجبي خراجهم. فانطلقوا على ملك الصين، وقابلوه، ولما انتهى اللقاء قال لهم: انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له: ينصرف، فإني قد عرفت حرصه، وقلّة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يُهلككم ويُهلكه،، قال له هبيرة: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون، وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك، وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا


بحيرة خوارزم
نهر سيحون
بلاد ما وراء النهر
بلاد الشاش
كاشان
فرغانة
خوقنده
كاشغر
خوارزم
نهر جيحون
بخارى
بيكند
سمرقند
الصغد
كش
زم
مرو
خراسان
آمل
الصغانيان
ترمذ
نهر جيحون
بلخ
طخارستان
سمنجان
بغلان
جوزجان
فارياب
مروالروذ
طالقان
كابل
هراة

نخافه. قال: فما الذي يرضي صاحبك؟ قال: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويأخذ منكم الجزية. قال: فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بترابٍ من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزيةٍ يرضاها. فدعا بصحافٍ من ذهبٍ فيها تراب. وبعث بحريرٍ وذهبٍ، وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم.

فساروا فقدموا بما بعث به، فقبل قتيبة الجزية، وختم الغلمان وردّهم، ووطئ التراب.

وبعث قتيبة إلى الوليد هبيرة بن الشمرَّج فمات بفارس وهو في طريقه إلى الشام.

ب ـ **السند**: أرسل الحجاج إلى ثغر السند سنة تسع وثمانين محمد بن القاسم الثقفي[1] وسيّر معه ستة

---

(١) محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي: يلتقي مع الحجاج في الحكم نسباً. ولد محمد سنة اثنتين وستين. وكان أبوه والي البصرة للحجاج. وأرسل الحجاج محمداً على ثغر السند فقام بالفتح، وجاءه خبر وفاة الحجاج وهو بالملتان، واستمر محمد في غزوه، ثم لم يلبث أن توفي الوليد بن عبد الملك، وجاء بعده أخوه سليمان فأرسل إلى السند يزيد بن أبي كبشة السكسكي والياً وعزل ابن القاسم، وبذهاب إمرته ادعت صيته بنت داهر ملك السند أن محمد بن=

آلاف مقاتل، وجهّزه بكل ما يحتاج إليه، فسار محمد إلى مكران فأقام بها عدة أيام، ثم اتجه شرقاً نحو السند، كلما مرّ على مدينةٍ فتحها حتى وصل إلى الديبل[1] يوم جمعة، ووافته هناك السفن التي حمل عليها الرجال والسلاح، فخندق حين نزل الديبل وأنزل الناس منازلهم، ونصب المجانيق، وكان معه منجنيقاً ضخماً يقال له: «العروس» يعمل عليه خمسمائة رجل.

وكان بالديبل صنماً للمشركين يسمى: «بدّ» عليه برج مرتفع، وتعلوه راية حمراء. وحاصر محمد بن القاسم مدينة الديبل، وطال حصارها، فرمى صنمها بالمنجنيق فكُسّر، فتطيّر الكفار بذلك. وزحف عليهم ابن القاسم فخرجوا إليه فهزمهم حتى ردّهم إلى مدينتهم فتحصنوا فيها، فأمر بالسلالم فنصبت على الأسوار، وصعد عليها الرجال، وفتحت المدينة عنوةً،، وهرب عامل الملك داهر عنها. وأنزل ابن القاسم فيها أربعة

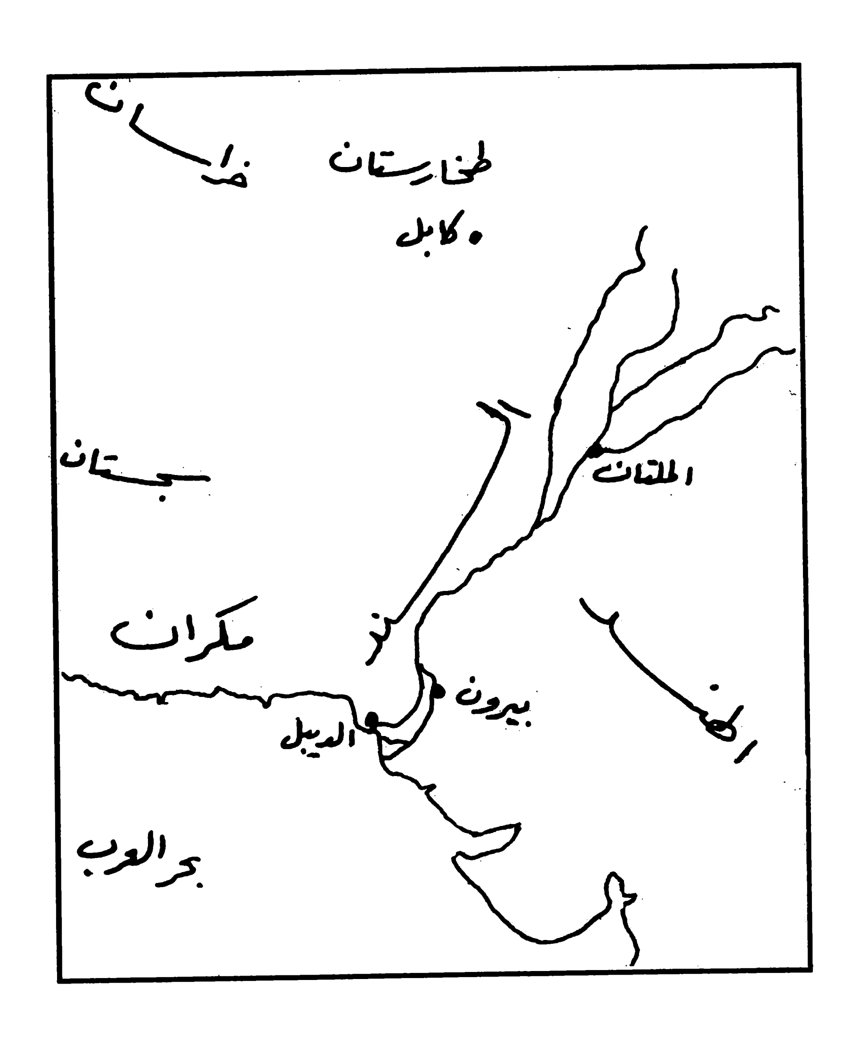
= القاسم قد اغتصبها فاعتقل وقيّد وأرسل إلى العراق فحبسه صالح بن عبد الرحمن بواسط لثأر له عند الحجاج إذ كان قد قتل أخاه. واستطاعت صيتة أن ترسل من يدسّ له السم فمات انتقاماً لمقتل أبيها، ثم أسلمت واعترفت بذلك.

(١) الديبل: مكان كراتشي اليوم.

آلاف من المسلمين، وبنى فيها مسجداً، وسار إلى (بيرون)، وكان أهلها قد بعثوا إلى الحجاج فصالحوه، فاستقبلوا ابن القاسم بالميرة، وأدخلوه مدينتهم. وسار عنها فكان لا يمرّ على مدينة إلا فتحها.

التقى محمد بن القاسم بجيشه مع داهر ملك السند بجيشه فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم نزل داهر عن فيله الذي كان يركبه وقاتل مترجلاً فقتل في الماء، ثم انهزم الكفار وتبعهم المسلمون يقتلون بهم كما يشاءون، وغلب ابن القاسم على بلاد السند، وفتح مدينة (راور) عنوةً، وكان فيها امرأة لداهر فخافت أن تؤخذ فأحرقت نفسها وجواريها ومالها على عادة الكفار الهنود.

استمرّ محمد بن القاسم في تقدمه شمالاً حتى وصل إلى مدينة (الملتان)، فقاتله أهلها، وانهزموا فحاصرهم، فجاءه إنسان ودلّه على قطع الماء الذي يدخل المدينة فقطعه فعطشوا، فألقوا بأيديهم، ونزلوا على حكمه، فقتل المقاتلة، وسبى الذرية وسدنة الصنم (البدّ)، وهم ستة آلاف، وأصاب المسلمون في الملتان ذهباً كثيراً، حيث كان صنم (البدّ) في الملتان تُهدى إليه الأموال، ويحج إليه من البلاد، ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده، ويزعمون أن صنمهم هو تمثال أيوب، عليه السلام.



خراسان
طخارستان
كابل
سجستان
الملتان
مكران
سند
بيرون
الديبل
الهند
بحر العرب

ومات الحجاج ومحمد بن القاسم بالملتان فلم يبال وتابع فتوحاته إذ أنه يجاهد في سبيل الله، ومات الخليفة الوليد، وخلفه أخوه سليمان وكان ناقماً على الحجاج لموافقته الوليد على خلع سليمان من ولاية العهد، بل كانت النقمة على أبناء عقيل جميعاً فنال ذلك محمد بن القاسم فعزل عن السند، وعمت الفوضى الثغر.

الجبهة الشمالية:

كانت الروم على جبهة المسلمين الشمالية، وتمتدّ على مساحاتٍ شاسعةٍ، وكانت على درجةٍ كبيرةٍ من القوة، ولها ماضٍ في القتال معروف، ونزاع مع الفرس طويل، وهي إحدى كبريي دول العالم في مرحلةٍ سابقة لا تبتعد كثيراً في غور الزمن عن هذه المرحلة التي نتكلم عنها إذ لا تصل إلى القرن من الزمن، وتختلف هذه الجبهة عن باقي الجبهات في أن حكومتها واحدة لا يتعدد فيها الملوك، ولا تتنافس فيها الأقاليم، كما أنها على عقيدةٍ واحدةٍ مع اختلاف أقطارها وتباين أجزائها، وقد التقت مع القوة الإسلامية الناشئة وجهاً لوجه، وتراجعت أمامهم في كل معركةٍ نشبت بين الطرفين، وعرفت قوتهم، وشهدت ببسالتهم، وخبرت إقدامهم،

وأيقنت أنها لا يمكنها مواجهتهم، ولا تستطيع منازلتهم في تلك الظروف لذا كمنت في جحورها، وصبرت على ما لحقها من هزائم، وما فقدته من أجزاء كانت تبسط نفوذها عليها، تنتظر أن يخلد المسلمون إلى الأرض فيتخلّوا عن فكرة الجهاد، أو يختلف بعضهم مع بعضٍ حتى يكون بأسهم بينهم شديداً، وعندها تنقض عليهم وتكون قد استعدّت، وهيّأت قواتها، وفي الوقت نفسه لا تريد أن يظهر عليها الخوف بسكونها التام لذا كانت تقوم ببعض الغارات الهامشية أو الغزوات الجانبية مع يقينها بأنها ستجد الردّ الحاسم والضربة الموجعة ولكن لا تبالي بذلك ما دامت تُحقّق إظهار بقاء وجودها، وإمكانية الحركة، وقدرتها على الضرب.

وشغل المسلمون بأحداثهم الداخلية، وتوقّفت عمليات الفتح نسبياً، وظنّ الروم أن الفرصة قد واتتهم، وخاصةً أنه قد كانت لهم ضلع في الأيدي الخفية التي حرّكت بعض الفتن والأحداث، فأخذوا بالاستعداد فجاءهم الردع الحاسم، وحاولوا التحرّش فأتتهم الضربة، وهذا ما جعلهم، يرجعون إلى ما كانوا عليه من بعض الغارات.

كما أن المسلمين كانوا قد امتدت جبهاتهم مسافات

طويلةً، وفي الوقت نفسه فإن أعدادهم قليلة، وما دخل في أعدادهم لا يمكن الركون إليهم دائماً بل يشكلون أحياناً عثرة إذ أسلموا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم لحداثة عهدهم، وقلّة معرفتهم، وضحالة تعمّقهم، ورقّة علمهم، فقد ينقضون العهد، وقد يتبعون ناعق العصبية، وربما زيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل. وهذا ما رأيناه على الجبهة الشرقية، كما أن القلوب لم تصفُ بعد، والجراح لم تلتئم، وهذا ما جعل المسلمين يُوزِّعون قوتهم، ويتحرّكون بحذرٍ، ويتقدّمون على ساحاتٍ محدودةٍ، وإن كانت لا تعوزهم الطاعة، ولا تنقصهم الشجاعة، لم ينسوا الصدق، ولم يفقدوا الإخلاص، صفتهم الإقدام ولا يعرفون الإحجام لذا كان النصر حليفهم، والظفر إلى جانبهم، ولكن كما قلنا على نطاقٍ محدودٍ لا يتعدى دخول مدينةٍ، أو فتح حصنٍ، أو هزيمة جيشٍ، أو التوسع في رقعةٍ من الأرض، وهذا ما امتازت به الجبهة الشمالية في هذه المرحلة من التاريخ.

غزا مسلمة بن عبد الملك الروم سنة ستٍّ وثمانين في بداية خلافة أخيه الوليد بن عبد الملك.

وفي سنة سبعٍ وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم ومعه يزيد بن جبير فلقي الروم، في ناحية

المصيصة، وهم بأعدادٍ كبيرةٍ. كما التقى مسلمة، ومعه حوالي ألف مقاتل من أهل إنطاكية، التقى مع ميمون الجرجماني[1] عند طُوَانة[2]، فهُزم الجراجمة، وقُتل منهم عدد كبير، وفتح الله على يدي مسلمة حصوناً. كما غزا هشام بن عبد الملك وفتح عدة حصون، وقتل عدداً من المستعربة يزيد على الألف، وسبى ذراريهم ونساءهم.

وسار مسلمة بن عبد الملك سنة ثمانٍ وثمانين، وغزا أرض الروم، ومعه ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك، وقد ولّى الأعداء الأدبار حتى دخلوا كنيستهم، وجاءهم المدد فارتدوا على المسلمين فقهروهم حتى ظنّ المسلمون أنهم لا يمكنهم جبر هزيمتهم، وقد ثبت العباس بن الوليد مع عددٍ قليلٍ منهم ابن مُحَيْريز الجمحيّ، فقال العباس لابن مُحَيْريز: أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة؟. فال ابن مُحَيْريز: نادهم يأتوك. فنادى العباس: يا أهل القرآن، فأقبلوا

(١) النسبة إلى جُرجومة، وهي بلدة قرب إنطاكية يُنسب إليها الجُراجمة السكان القدماء لتلك المنطقة، وكانوا قد مالوا إلى المسلمين عندما رأوا منهم القوة، وقاتلوا معهم طمعاً في الغنائم، فلما وقعت الفتنة في ديار الإسلام، راسل الجراجمة الروم، ومالوا إليهم، وكانوا عيوناً لهم، فقاتلهم المسلمون.

(٢) طوانة: بلدة من ثغور المصيصة.

جميعاً، فهزم الله الأعداء حتى دخلوا طُوَانة.

وكان الوليد بن عبد الملك قد ضرب البعث على أهل المدينة في هذه السنة، ضرب عليهم بعث ألفين، فخرج منهم ألف وخمسمائة، وتخلّف خمسمائة، فغزوا الصائفة مع مسلمة والعباس، وهما على الجيش، وأنهم شتوا بطُوَانة وافتتحوها.

وعاد مسلمة بن عبد الملك لغزو أرض الروم في السنة نفسها، ففتح ثلاثة حصونٍ، وقتل من المستعربة ما يزيد على الألف وأخذ الأموال وسبى الذرية.

وكان على الغزو لأرض الروم سنة تسعٍ وثمانين مسلمة بن عبد الملك، والعباس بن الوليد بن عبد الملك دخلاها جميعاً، ثم تفرّقا فيها، فافتتح مسلمة حصن سورية، وافتتح العباس بلدة أذرولية، والتقى بجمعٍ للروم فهزمهم. وقصد مسلمة مدينة عمورية فالتقى بجمعٍ كبيرٍ للروم فهزمهم بإذن الله، وافتتح هرقلة، وقمودِية. كما غزا العباس بن الوليد الصائفة.

وفي سنة تسعين غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم ففتح عدة حصونٍ، وغزا العباس بن الوليد أيضاً الروم حتى بلغ الأرزن. وأسرت الروم خالد بن كيسان

صاحب البحر، فذهبوا به إلى ملكهم، فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك.

وفي سنة إحدى وتسعين غزا الصائفة عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك. وغزا مسلمة بن عبد الملك الترك حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان، ففُتحت على يديه مدن وحصون.

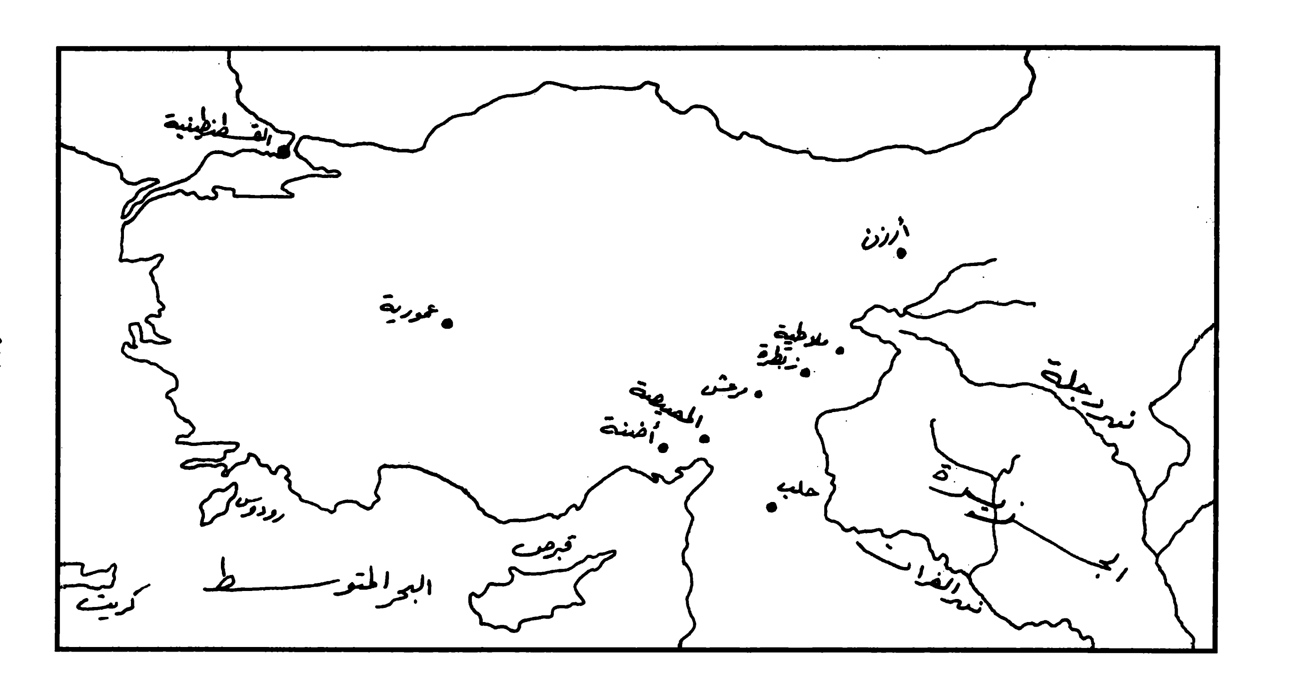
وعاد مسلمة بن عبد الملك في السنة التالية إلى غزو الروم ومعه عمر بن الوليد بن عبد الملك ففتحا مدناً وحصوناً، وجلا أهل سوسنة إلى داخل أرض الروم.

وفي سنة ثلاثٍ وتسعين غزا العباس بن الوليد أرض الروم وفتح الله على يديه مدينة سَمَسْطِيّة وغزا كذلك مروان بن الوليد بن عبد الملك، وغزا مسلمة بن عبد الملك، وفتح عدة حصونٍ من ناحية ملاطية.

وزادت الغزوات على أرض الروم سنة أربع وتسعين حيث غزا العباس بن الوليد، وعبد العزيز بن الوليد، والوليد بن هشام المعيطي، ويزيد بن أبي كبشة.

وغزا العباس بن الوليد بن عبد الملك أرض الروم سنة خمسٍ وتسعين.

وكان بشر بن الوليد بن عبد الملك على رأس شاتيةٍ سنة ستٍ وتسعين.


القسطنطينية
أرزن
عمورية
ملاطية
زبطرة
مرعش
المصيصة
أضنة
حلب
نهر دجلة
الجزيرة
نهر الفرات
رودوس
قبرص
البحر المتوسط
كريت

الجبهة الغربية:

كان موسى بن نصير قد أكمل فتح المغرب، واستقرّ المسلمون هناك، وعمل موسى على ترسيخ العقيدة في نفوس أولئك السكان الذين دخلوا بالإسلام، وارتفعت المعنويات، ورأوا أنه لا بدّ من أداء المهمة الملقاة على عاتقهم، وهي نشر الإسلام والدعوة إليه، ويجب ألا تقف البحار أو الجبال عائقاً أمامهم، ولذا لا بدّ من اجتياز بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) والانتقال إلى الأندلس للدعوة إلى الإسلام هناك، وهذا تفكير المسلمين من قبل، أما الآن فقد أصبح الأمر واجباً حيث أصبح المسلمون على مقربة من الأندلس، وفي الوقت نفسه فإن الإسلام قد رسخ في نفوس أهل المغرب.

جهّز موسى بن نصير سنة تسعٍ وثمانين جيشاً وأوكل قيادته إلى ولده عبد الله بن موسى، وسيّره إلى الجزر الواقعة في شرق بلاد الأندلس فافتتح جزيرتي مَيُورقة، ومنورقة.

استشار موسى بن نصير الخليفة الوليد بن عبد الملك في غزو الأندلس لنشر الإسلام، فتردد الوليد في ذلك خوفاً على المسلمين في دخولهم ذلك المحيط الواسع البعيد عن مركز الخلافة، وسكان المغرب الذين

سيكونون عماد الجيش المجاهد لم يرسخ الإيمان في قلوبهم بعد حسب تصوّر الخليفة، غير أن موسى بن نصير قد أقنع الخليفة بسلامة الأمر، ورسوخ الإيمان في نفوس البربر، وحرصهم على الجهاد. واندفاعهم إلى ذلك بقلوبٍ صادقةٍ وعملٍ مخلصٍ في سبيل الله. وبعد تبادل الآراء تمّ الاتفاق على أن يسبق الفتح حملات استطلاعية.

أرسل موسى بن نصير حملةً استطلاعيةً في رمضان سنة إحدى وتسعين، وتضمّ خمسمائة جندي، منهم مائة فارس بقيادة طريف بن مالك المكنى بأبي زُرْعَة، وهو من مسلمي البربر، واجتازت هذه الحملة بحر الزقاق الفاصل بين المغرب والأندلس، والذي عُرف فيما بعد باسم مضيق جبل طارق. ونزلت الحملة في جزيرة (بالوما) على الجانب الأندلسي، والتي عُرفت فيما بعد (جزيرة طريف) نسبةً إلى قائد الفرسان طريف بن مالك، وأدّت هذه الحملة مهمتها، وحقّقت غرضها ورجعت بالأخبار المشجّعة لبدء الجهاد في الأندلس.

وفي الخامس من شهر رجب سنة اثنتين وتسعين جهّز موسى بن نصير جيشاً قوامه سبعة آلاف مقاتلٍ، أكثرهم من البربر المسلمين، وليس فيهم من العرب المسلمين إلا القليل، واختار موسى قائداً لهذا الجيش والي

طنجة مولاه طارق بن زياد، وهو قائد ناجح، ذو تجربةٍ عسكريةٍ إضافةً إلى حماسته للإسلام. وبعث موسى نجدةً لهذا الجيش تضمّ خمسة آلاف آخرين بقيادة طريف بن مالك، وبذا أصبح عدد جيش طارق اثني عشر ألفاً.

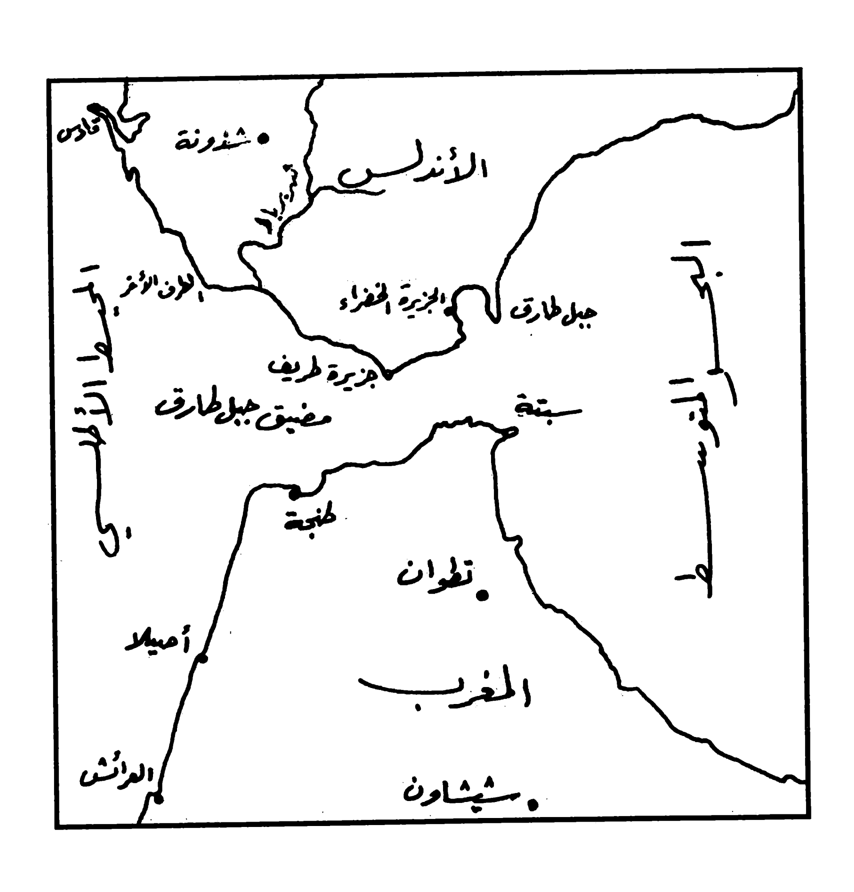
تجمّع الجيش الإسلامي في الطرف الأندلسي في لسانٍ جبليٍ ممتدٍ في البحر عُرف باسم جبل الفتح، ولكن سُمّي فيما بعد باسم جبل طارق[1]. وكذا عرف المضيق باسم مضيق جبل طارق.

ولما تكامل تجمّع الجيش خطب طارق الجيش فقال: «أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم ـ والله ـ إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام على مائدة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ـ ولم تنجزوا لكم أمراً ـ ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من

---

(١) جبل طارق: عُرف بعدة أسماء قبل الفتح، إذ سمي جبل كالبي، كما أطلق عليه جبل أتيلا، وكذلك عرف باسم: أعمدة هرقل.

أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أُحذّركم بأمرٍ أنا عنه بنجوةٍ، ولا حملتكم دوني على خطةٍ أرخص متاعٍ فيها النفوس. أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم علَى الأشقّ قليلاً استمتعتم بالأرفه الألّذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفر من حظي. وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقةً منه بارتياحكم للطعان، وسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصةً لكم من دونه ودون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي إنجازكم على ما يكون لكم ذكر في الدارين. واعلموا أني أول مجيبٍ إلى ما دعوتكم إليه، وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم «لذريق» فقاتله - إن شاء الله تعالى - فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله».



قادس
شذونة
الأندلس
الطرف الأغر
الجزيرة الخضراء
جبل طارق
جزيرة طريف
مضيق جبل طارق
سبتة
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
طنجة
تطوان
أصيلا
المغرب
العرائش
شيشاون

ولا بُدّ لي من أن أقف على بعض النقاط التي أثارها المغرضون ليقلّلوا من أهمية هذا الفتح، بإضعاف الروايات التي تحدّثت عنه، وليُعطوا أثر الفتح إلى يوليان فينسبون له الدعم، والمساعدة، والإرشاد، وتقديم السفن.

١ ـ وضعوا شكوكاً في نسبة الخطبة ـ التي ذكرناها آنفاً ـ إلى طارق بن زيادٍ، فقالوا: لا يمكن أن يقولها رجل بربري، لم يمض على إسلامه إلا قليلاً، ولم يخالط العرب إلا يسيراً، إذ كان مولىً لموسى بن نصير، فلا يمكن أن يقول مثل هذه الخطبة ارتجالاً. والواقع أن أباه زياداً هو الذي استعرب، ونشأ طارق مسلماً، وعاش في وسطٍ مسلمٍ، ومن كان هذا وضعه فإنه يتكلم بالفصحى، ويلقي خطباً مثل الكلمة التي ألقاها. ويجب أن نعلم أن طارقاً هو قائد الجيش، فهو إمام جنده في الصلاة، وخطيبهم في الجمع والأعياد، وفي كل ميدانٍ يقتضي فيه الحديث والكلام، وهذا واجب القائد، ولا تصحّ إمرة من لا تتوفّر فيه هذه الصفات، ولا يمكن لموسى بن نصير أن يختار للقيادة من لا تتوفّر فيه هذه الصفات، وهو مولاه وأدرى الناس به.

ويقول بعضهم: كيف تكون هذه خطبة لقائدٍ أكثر

جيشه من البربر، وأن يرتجلها ارتجالاً؟ وهل يتكلم الخطيب في الجمع والأعياد بالعامية إن كان أكثر الحضور من العامة؟ وهل يصعب على خطيب الجمع والأعياد أن يرتجل خطبةً كهذه وقد تمرّس على الكلام والارتجال، وتمرّن على الخطابة مدة؟.

٢ ـ قالوا: إن السفن التي انتقل عليها طارق وجيشه هي ليوليان، ومتى كانت الجيوش تنتقل في البحر على سفن غيرها؟ لقد فتح المسلمون قبرص سنة ثمانٍ وعشرين في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وخاضوا عدداً من المعارك البحرية، ومنها ذات الصواري، وفتحوا عدداً من الجزر، بل وحاصروا القسطنطينية عاصمة الروم. فهل كانت معاركهم هذه كلها على سفن غيرهم؟ وأي مصدرٍ أعارهم سفنه؟. لقد كان المسلمون يصنعون السفن في الشام وفي مصر، ويقاتلون الروم في البحر، وينتصرون عليهم. وكانت السفن التي انتقل عليها جيش طارق بن زياد من العدوة المغربية إلى العدوة الأندلسية كانت للمسلمين ومن صنعهم، غير أن المغرضين يريدون أن يقولوا: إن نصر المسلمين لم يكن لقوتهم وإمكاناتهم وصدقهم بالقتال ولكن لقوة يوليان ومساعداته الأساسية، ولولا ذلك لما تمّ الفتح، فالمسلمون أمة ضعيفة وليست

محاربةً حتى لا تملك السفن الحربية ولا تجيد صنعها، ولا تملك الأسلحة التي تستخدمها في القتال، ولا تصنعها بل تشتريها من غيرها. وذلك في سبيل نفث السموم، وإرواء غليل النفوس الحاقدة.

٣ ـ زعموا أن طارق بن زياد قد قام بإحراق السفن التي نقل جيشه عليها من العدوة المغربية إلى العدوة الأندلسية، ويريدون أن يقولوا: إن هذا الإحراق قد تمّ حتى ييأس المسلمون من العودة، فلا يكون أمامهم إلا القتال بضراوةٍ، كما يريدون الإشارة بهذا الزعم إلى أن القادة المسلمين لم يكونوا أكفاء، وليسوا على مستوى المسؤولية فهم يتصرّفون بما تحت أيديهم تصرّف غير المبالاة. ولكن طارقاً لم يقم بإحراقها أبداً، ولو فعل لسئل، بل لعوقب فإن صنعها يكلّف الكثير من مال المسلمين، ويستغرق الكثير من الوقت، وهو جهد ووقت المسلمين، كما لم يعرف عن المسلمين الأوائل إهدار المال، وإضاعة الوقت، وإتلاف ما صنعوه.

لم يقل طارق إني أحرقت السفن أو أمرت بذلك، وإنما فهم بعض المتأخرين ذلك من خطبته حسب زعمهم أنهم فهموا، وربما افتروا، وهو الأرجح.

لم يقل أحد من جنده أو معاصريه هذا القول، وإنما قيلت بعده بعدةِ قرون.

السفن ليست ملكاً له ليتصرّف بها كيف يشاء بل هي للمسلمين جميعاً. كما أنهم يزعمون أنها ليوليان، وهل جزاء من يقدّم خدمةً أن تتلف أملاكه، وفي كلتا الحالتين كان لا بد من محاسبته.

ولكن لم يحاسب أحد طارقاً، سواء أكان القائد العام موسى بن نصير أم الخليفة الوليد بن عبد الملك، مع العلم أن طارقاً كان مولىً لموسى بن نصير فليس له الحق في أن يتصرّف تصرّف أبناء السادة المغرورين عند غير المسلمين.

ألم يكن بإمكانه أن يأمر بالسفن أن تعود إلى العدوة المغربية فيصل إلى النتيجة نفسها؟ وذلك أفضل من إحراقها، وخسارة المسلمين لها.

ألم يتوقّع طارق مدداً؟ فعلى أي شيءٍ ينقل المدد؟

من أين جاء موسى بن نصير بالسفن التي انتقل عليها إلى الأندلس مع بقية الجيش عندما خاف على المسلمين عندما توغّلوا بعيداً داخل الأندلس؟.

لم تكن عملية إحراق السفن بالأسلوب الذي يثير الحماسة لدى المسلمين بل كان الحثّ على الشهادة في سبيل الله والفوز بالجنة.

إن عملية إحراق السفن لا تفيد إذا وقع الهلع في النفوس. وقد كان العرب في الجاهلية وربما بعض الأمم الأخرى إذا خرجوا للقتال أخذوا معهم نساءهم وأبناءهم كي لا يفرّوا خوفاً من أن يقعوا في السبي، ولكن إذا حمي الوطيس، واحمرت الحدق، ووقع الرعب في القلوب فرّوا لا يلوون على شيءٍ، ولعلنا نذكر كيف فرّت هوازن يوم حنين وتركت ذراريها فوقعت سبياً بأيدي المسلمين، فإذا كانت الذراري لا يلتفت إليها ذووها فهل يُفكّر الخائف بوجود سفن أم لا؟ إذ لا يُفكّر إلا بالنجاة من المأزق الذي هو فيه، وبعدها يبحث في طريق الوصول إلى المأمن.

٤ ـ ومما يدل على الافتراءات في دخول المسلمين إلى الأندلس، ما روي من قصصٍ غريبةٍ ومنها ما رواه ابن القوطية في كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس»، وابن الكردبوس في كتابه «تاريخ الأندلس». مع أن الأول، وهو ابن القوطية متهم بالشعوبية، وقد أعطى لشعبه القوط صفات تفوق غيرهم من الشعوب، وكان الثاني مولعاً بإيراد الأساطير، والغرائب، والقصص المنسوجة من الخيال، وقد قال ابن الكردبوس: «ورحل لذريق قاصداً قرطبة يريد طارقاً، فلما تدانيا تخيّر لذريق رجلاً

شجاعاً عارفاً بالحروب ومكائدها، وأمره أن يدخل في عسكر طارق، فيرى صفاتهم وهيئاتهم، فمضى حتى دخل في محلة المسلمين، فأحسّ به طارق فأمر ببعض القتلى أن تقطع لحومهم، وتطبخ. فأخذ الناس القتلى فقطعوا لحومهم، وطبخوها، ولم يشكّ رسول لذريق في أنهم يأكلونها. فلما جنّ الليل أمر طارق بهرق تلك اللحوم ودفنها، وذبح بقرٍ وغنمٍ وجعل لحومها في تلك القدور. وأصبح الناس فنودي فيهم بالاجتماع إلى الطعام فأكلوا عنده، ورسول لذريق يأكل معهم. فلما فرغوا انصرف الرسول إلى لذريق، وقال له: أتتك أمة تأكل لحوم الموتى من بني آدم، صفاتهم الصفات التي وجدناها في البيت المقفل، قد أحرقوا مراكبهم، ووطّنوا أنفسهم على الموت والفتح، فداخل لذريق وجيشه من الجزع ما لم يظنوا».

إن هذه القصة خيالية، فهي عارية عن الصحة لـ:

أ ـ وردت هذه القصة عن مصدرٍ غير ثقةٍ، إذ ذكرها ابن القوطية وأخذها عنه بعض المؤرخين.

ب ـ لا يمكن أن تصدر هذه القصة وأمثالها عن المسلمين سواء اتخذت للحيلة وإلقاء الرعب في نفوس الأعداء أم لغير ذلك لا تصحّ أبداً لأن تقطيع لحوم

الموتى والعبث فيها نوع من المثلة، وهذا محرم في ديننا الإسلامي إذ نهى رسول الله، ﷺ، عنه.

وإن أول عملٍ يقوم به المسلمون بعد الانتهاء من المعركة، وقبل غسل السيوف ومسحها إنما هو دفن الموتى سواء أكانوا شهداءهم أم قتلى أعدائهم. وتروي القصة أن الجاسوس قد جاء والجثث لا تزال ملقاةً على الأرض، فهل وصل أثناء المعركة؟ هل جاء والمسلمون يجلسون بين القتلى تنطلق منها الروائح؟

ح ـ كيف سكت القائد عن جاسوسٍ دخل في صفوف جيشه وقد عرفه؟

د ـ كيف دخل الجاسوس بين العسكر، وأكل معهم، وهو لا يعرف لغتهم، ولم ينتبهوا إليه؟.

هـ ـ لو وقعت القصة لكانت مخالفةً صريحةً من القائد، ولضجّ بها الجند، ولوصلت أخبارها إلى القيادة ولحوسب القائد، ولنال العقوبة على هذه المخالفة الصريحة.

وبعد كل هذا فإن أخبار المسلمين كانت تسبق جيوشهم الفاتحة، وكانت أخبار أخلاقهم وتصرّفاتهم تملأ المنطقة قبل أن تطرقها أقدام الفاتحين. وقد وصل

المسلمون إلى المغرب قبل فتح الأندلس بأربعين سنةً، وهم في صراعٍ مع الروم، وحاكم الأندلس على مقربةٍ منهم ولا يعرفُ عنهم شيئاً. ثم إن مثلِ هذه القصة لم ترو إلا هنا، ويلاحظ أنها رُويت من أُناسٍ يمتّون إلى القوط بصلة النسب إذ هالهم ذلك النصر الرائع، انتصار اثني عشر ألفاً من المسلمين على مائتي ألفٍ من القوط، فأرادوا أن يخففوا من أثر ذلك النصر، ويجدوا المبررات للقوط في تلك الهزيمة المخزية بأن الرعب قد وقع في نفوسهم بالحيلة والخديعة التي لجأ إليها طارق، وما كانوا ليهزموا لولا تلك الحيلة.

نزول طارق في الأندلس:

أبحر طارق من سبتة، وجاز بحر الزقاق، وأرسى مراكبه إلى جبل فسُمّي باسمه «جبل طارق» إلى الآن، وذلك يوم السبت في شهر شعبان سنة اثنتين وتسعين، وكان قد عزم النزول في موضع منخفضٍ فوجد فيه بعض الروم فمنعوه منه، فعدل عنه ليلاً إلى موضعٍ وعرٍ فنزل فيه وهم لا يعلمون، ولم تزل المراكب تعودُ إلى سبتة وتنقل الجند حتى اجتمع جيشه جميعاً عنده بالجبل.

سار طارق على رأس جيشه من الجبل متجهاً نحو

الجزيرة الخضراء، وقد وقعت هناك عدة معارك جانبيةٍ مع قوات القوط انتصر فيها المسلمون. ولما وصلت الأخبار إلى لذريق جمع ما أمكنه جمعه من الجيش، وخرج بمائة ألف لملاقاة طارق، ولم يكن هناك شكٌ عند القوط من أنهم سيبيدون الجيش الإسلامي إبادةً تامة لما كان هناك تفاوت في العدد والعدة: مائة ألف في بلادهم يقابلون اثني عشر ألفاً غرباء لا يعرفون الأرض التي يقاتلون عليها، لذا فإن القوط قد أخذوا الأدوات لتكبيل الأسرى المسلمين ولنقلهم إلى قاعدة لذريق.

التقى الطرفان يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين، واستمرت المعركة ثمانية أيام، أي ليوم الأحد لخمسٍ خلون من شهر شوال. وقد ظهر في المعركة أثر العقيدة إذ كان الجيش الإسلامي ذا روحٍ معنويةٍ عاليةٍ، وأنزل الله نصره على المؤمنين، وهزم المشركين.

كان اللقاء في كورة شَذُونة جنوب غربي شبه جزيرة إيبرية في سهل الفرنتيرة بين وادي نهر بَرْباط الذي يصبّ في المحيط الأطلسي إلى الشرق من الطرف الأغرّ وبين نهر لَكُه الذي يصب في المحيط الأطلسي جنوب مدينة قادس، وإلى الجنوب من بحيرة الخندق، لذا

اختلفت الروايات في تسمية هذه المعركة، فمنهم من يسميها معركة «لَكُه»، ومنهم من يقول: معركة «بَرْباط».

قُتل في معركة «لَكُه» لذريق ملك القوط بل لم يعرف له أثر، وقيل مات غرقاً، وغنم المسلمون غنائم كثيرة، ومنها الخيول حتى غدا جند المسلمين كلهم فرساناً، ولم يكن لديهم قبل ذلك سوى قلةٍ من الخيل، وفقد المسلمون ثلاثة آلاف شهيدٍ.

سار طارق إلى شَذونة، وفتحها بعد حصارٍ، وانطلق بعدها إلى مورو، وافتتحها، ثم اتجه إلى قرمونة فدخلها، ومضى إلى إشبيلية فصالحه أهلها، ودفعوا له الجزية، وبعدها سار إلى استجه وقد تجمع فيها حشد كبير من القوط، وانضمّ إليهم فلول جيش لذريق فجرت حرب حامية بين الطرفين، وكثر القتل والجراح بين المسلمين، وصبروا، ثم نصر الله المسلمين، وامتنع أهل استجه، ثم ظفر طارق بأمير استجه على جانب النهر فوثب عليه في الماء، وهو لا يعرفه، فأخذه إلى المعسكر فاعترف بأنه أمير المدينة، فصالحه، وضرب طارق عليه الجزية، ووفّى القوطي بشروطه.

أرسل طارق من استجه عدة سرايا إلى الجهات كلها. بعث جيشاً بقيادة مغيث الرومي إلى قرطبة

فاستطاع فتحها دون كبير عناءٍ، وأرسل جيشاً آخر إلى مالقة، وثالثاً إلى كورة البيرة ففتح مدينة غرناطة، ورابعاً إلى مُرسية. أما طارق فقد سار إلى كورة جيان يريد طليطلة قاعدة الدولة القوطية. ودخل مدينة جيان، ولما اقترب من طليطلة رغب بوضع يده على ما حولها حتى يقطع عنها أية إمداداتٍ فسار شمالاً حتى وصل إلى وادي الحجارة فدخل مدينة المائدة، ثم عاد إلى طليطلة قبل مداهمة فصل الشتاء في أوائل سنة ثلاثٍ وتسعين، ففتح مدينة طليطلة المدينة الملكية.

وكان موسى قد بعث فرقةً إلى جزيرة سردينيا، دخلتها، وغنمت منها غنائم هائلة، ولكن غرق أكثر أفرادها في البحر أثناء العودة.

خاف موسى بن نصير على المسلمين بعد أن توغّل بهم طارق بن زياد هذه المسافات الواسعة في شبه جزيرة إيبرية، وعددهم قليل، ويجوسون في أراضٍ لم يعرفوها من قبل فبعث إلى طارق يأمره بالتوقّف والانتظار حتى يقدم عليه، فتوقّف طارق في طليطلة، ولم يتجاوزها.

استخلف موسى بن نصير على القيروان أكبر ولده عبد الله، وسار إلى الأندلس على رأس جيشٍ قوامه ثمانية عشر ألفاً، واجتاز بحر الزقاق من مدينة سبتة في

شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين (شهر حزيران ٧١٢م)، ونـزل الأنـدلـس قـريـبـاً مـن جـبـل طـارق، ومـعـه ولـداه عبـد الـعزيز، وعبـد الأعلى، وكـثير من الـمؤن، فبنى مسجداً وعقد الرايات، وكان في جيشه الكثير من العرب إلى جانب البربر، ثـم سار إلى شذونة، وقرمونة، ثـم انطلق إلى إشبيلية، وكانت قاعدة الملك قبل استيلاء القوط ونقلهم العاصمة إلى طليطلة.

وامتنعت إشبيلية على موسى شهراً ثم فتحها فهرب علوجها إلى باجة، ثم فتح لَفَنْت، ولَبْلَة، وباجة ودخل مدينة ماردة وهي إحدى قواعد الأندلس. وكان فتح لَبْلة وباجة على يد عبد العزيز بن موسى بن نصير إذ أرسله أبوه من لَفَنْت لفتحهما.

دخل موسى مدينة ماردة بعد حصار استمرّ حتى أوائل شوال سنة أربع وتسعين (٣٠ حزيران ٧١٣م) انتهى بعقد صلح، ويضمن إعطاء الأمان لأهل ماردة، وتترك لهم أمورهم الخاصة، وتُترك للكنائس أموالها، ويأخذ المسلمون أموال القتلى والهاربين، وفتحت ماردة أبوابها للقادمين المسلمين يوم عيد الفطر سنة أربعٍ وتسعين.

أقام موسى بن نصير أكثر من شهرٍ في ماردة، يريح جنده، وينظم أمور المدينة المفتوحة، ولكن لما طالت مدة

حصار مادة وشُغل موسى بذلك فإن بعض القوط قد استغلّوا هذا، فاجتمعوا في إشبيلية، وقتلوا بعض المسلمين، وكذا فعل أهل باجة ولَبلة، فجهّز موسى حملةً، وأعطى قيادتها لولده عبد العزيز فأعاد فتح إشبيلية، وباجة، ولَبلة. وكذلك قام عبد العزيز بن موسى بن نصير بإعادة فتح كورة تُدْمير[1] (مرسية)، فأرسل عبد العزيز أخواه عبد الأعلى، ومروان لفتح بلدان الكورة.

التقاء موسى وطارق:

في بداية شهر ذي القعدة سنة أربعٍ وتسعين (أوائل شهر آب ٧١٣م) توجّه موسى نحو طليطلة كي يلتقي بطارق، وينضمّ الجيشان بعضهما إلى بعضٍ، وتشكيل قوةٍ كبيرةٍ، غير أن موسى من باب الاحتياط قد بعث إلى طارق يدعوه للسير نحوه كي تقصر المسافة بين الجيشين ويقلّ زمن اللقاء، ويبدو أن اللقاء قد تمّ في مدينة طلبيرة التي تقع إلى الغرب من طليطلة، وعلى مسافةٍ تُقدّر بمائةٍ وخمسين كيلومتراً، وإن كانت بعض المصادر قد ذكرت أن اللقاء قد تمّ في مدينة طليطلة نفسها.

---

(١) تُدمير نسبة إلى حاكمها القوطي تُدْمير بن غندريس، وبعد الفتح سميت كورة مرسية.

كان أحد كبار القوط يجمع قوات القوط في الشمال، وينتظر تقدّم موسى نحو الشمال لمداهمته، وهو بعيد عن قواعده ومراكز تموينه، ويذكر القوط أن هذا الرجل هو لذريق نفسه، وأنه لم يقتل في معركة وادي لكّة، وقد هرب إلى الشمال تحت جنح الظلام، واختفى هناك، ثم أخذ بالاستعداد، وبينما كان موسى يتجه نحو الشمال متجهاً من ماردة نحو طليطلة داهمه القوط، وجرت معركة حامية على طرف نهر تاجه انتصر فيها المسلمون، وقتل كبير القوط بيد مروان بن موسى بن نصير، وقيل: بل مات غرقاً، وعُرفت هذه المعركة باسم معركة «السواقي».

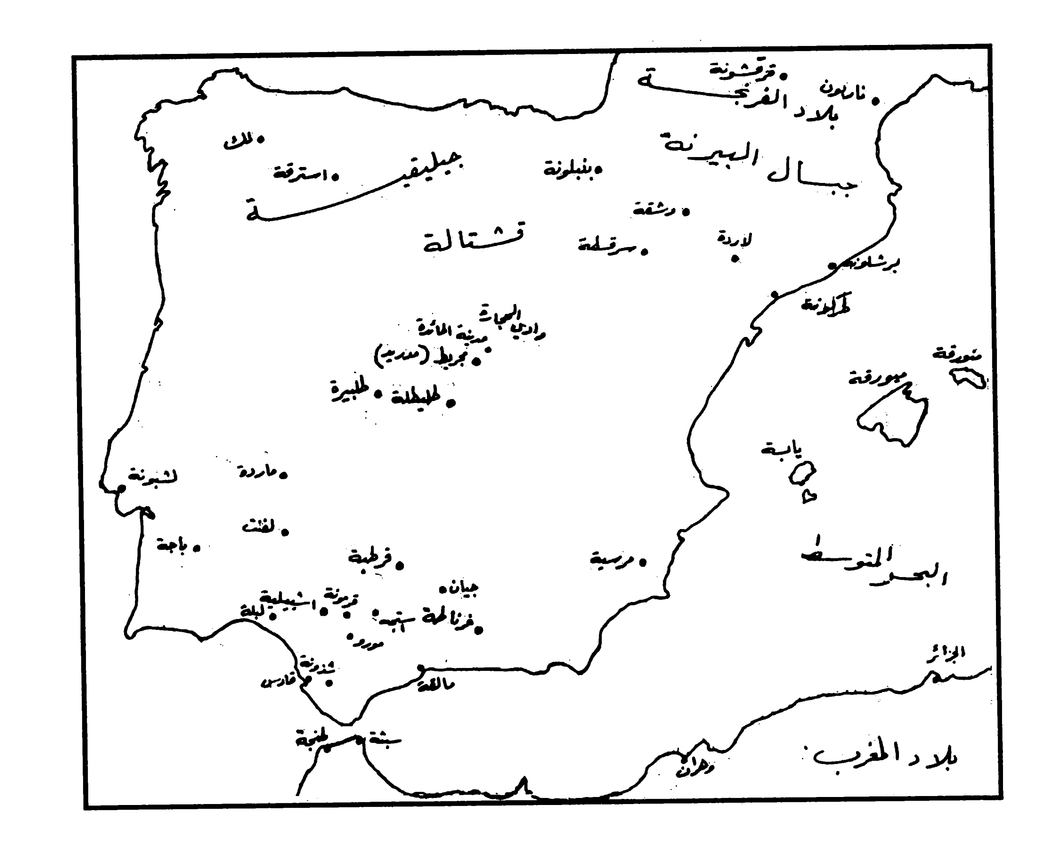
وبعد استقبال طارق مع وجهاء القوم لموسى في مكان اللقاء، سارا معاً إلى طليطلة، فوصلا إليها في شهر ذي الحجة سنة أربع وتسعين (أيلول ٧١٣م) فأمضيا فصل الشتاء فيها يستعدّان لمواصلة الجهاد في شمالي شبه جزيرة إيبرية. وكتبا للخليفة الوليد بن عبد الملك عن أخبار الفتح وأرسلا الكتاب مع مغيث الرومي وخاصةً أن موسى بن نصير قد كرر طلبه من الخليفة للموافقة على القيام بالفتح فكأنه يريد أن يقول له الآن: ها هي نتائج ما قد سبق أن طلبته منك، وقد كان خيراً، إذ تكلل بالفتح. كما ضربت العملة الإسلامية بالأندلس لأول مرةٍ.

انتهى فصل الشتاء، وحلّ الربيع فتحرّك الجيش الإسلامي بقيادة طارق بن زياد، وكان قد اكتسب من موسى ثقةً زائدةً على ثقته الأولى نتيجة جهده بالفتح وإخلاصه بالجهاد ـ وهو ما يخالف أقوال المغرضين ـ واستطاع المسلمون فتح سرقسطة، ولاردة، وبرشلونة، وطركونة، ووشقة.

وكان موسى بن نصير يسير بفرقةٍ من الجيش خلف طارق يُوطّد الفتح، ويُصفّي الجيوب إن بقي للقوط بعض المواقع، وأقام موسى بسرقسطة مدةً يبثّ السرايا في مختلف الجهات، ويرسم الخطط.

واجتاز موسى بعدئذ جبال البيرنة التي تفصل بين بلاد الأندلس وبلاد الفرنجة (فرنسا)، وفتح أكثر إقليم سبتمانيا في جنوبي بلاد الفرنجة فدخل مدن قرقشونة، وأربوبة، ونيم، وأبنيون، ومونبليه.

وكذلك اتجهت جيوش الفتح الإسلامي نحو الشمال الغربي من بلاد الأندلس بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد، فسار كل منهما في خط والتقيا في استرقة حيث فتحا منطقة جيليقية، واتخذ موسى مدينة لُك قاعدة للفتح. كما وصلا بالفتح إلى سواحل المحيط الأطلسي في جهة الشمال الغربي ودخلوا الموانئ هناك.



بلاد الفرنجة
قرقشونة
ناربون
جبال البيرنة
بنبلونة
وشقة
لاردة
سرقسطة
برشلونة
قشتالة
جليقية
استرقة
وادي الحجارة
مجريط (مدريد)
طليطلة
طلبيرة
منورقة
ميورقة
يابسة
البحر المتوسط
لشبونة
ماردة
باجة
قرطبة
مرسية
جيان
قرمونة
اشبيلية
لبلة
غرناطة
شذونة
قادس
مالقة
سبتة
طنجة
الجزائر
وهران
بلاد المغرب

خاف الوليد بن عبد الملك على المسلمين في بلاد الأندلس، وقد توغّل بهم موسى بعيداً، غرباء بين أمم معادية للإسلام، وبعيدين على مقر الخلافة، وعن قاعدة الإسلام أرض العرب، وقد بلغ موسى بن نصير من العمر عتياً إذ تجاوز السابعة والثمانين، وهو يقود الجهاد، لذا بعث الخليفة الوليد بن عبد الملك مغيثاً الرومي يطلب منه وقف الجهاد مؤقتاً والعودة إلى دمشق.

وصل مغيث الرومي إلى موسي بن نصير في الأندلس وهو يتقدّم في مقاطعة جيليقية فاستقبله موسى ولاطفه بغية أن يُؤخّره قليلاً لمتابعة الجهاد، والتقدّم في أرض الأعداء. ولما تأخّر رسول الخليفة بالعودة إلى دمشق أرسل الخليفة مبعوثاً آخر له يدعى أبا نصر، فلما وصل أبو نصر إلى ميدان القتال، حاول موسى تأخيره أيضاً غير أن أبا نصرٍ قد مسك بعنان فرس موسى، وأدار رأسه، ورجع إلى الخلف، وسلّم موسى كتاب الخليفة.

رجع موسى من بلدة لُك في جيليقية في أوائل شهر ذي الحجة سنة خمسٍ وتسعين، وأرسل إلى طارق بن زياد الذي كان على رأس بعض الفرق مجاهداً، يطلب منه اللحاق به، ففعل، وأدركه بالطريق

فتابعا السير مع رسولي الخليفة إلى إشبيلية حيث أقاموا أياماً، رتّب موسى خلالها الأوضاع، وعيّن ابنه عبد العزيز بن موسى والياً على الأندلس، وعدّ مدينة إشبيلية حاضرة الأندلس لموقعها الجيد وقربها من بحر الزقاق حيث المجاز. ثم انطلقوا نحو الجنوب فعبروا بحر الزقاق في أواخر شهر ذي الحجة سنة خمسٍ وتسعين (أيلول ٧١٤م)، وبذا استغرق جهاد موسى بن نصير في الأندلس سنتين وأربعة أشهر، وكان طارق قد سبقه بسنةٍ واحدةٍ.

نزل موسى بن نصير ومن معه في طنجة، فأمّر ابنه عبد الملك على المغرب الأقصى، وجعل مقره طنجة. وتابع الركب سيرهم نحو المشرق حتى وصلوا إلى القيروان، فولّى موسى ابنه الأكبر عبد الله على إفريقية، وكانت القيروان مقر الوالي. ومن القيروان انطلق الركب نحو مصر فنزلوا الفسطاط في شهر ربيع الأول سنة ستٍ وتسعين (تشرين الثاني ٧١٤م). ثم توجهوا نحو دمشق فوصلوا إليها في أوائل شهر جمادى الأولى (كانون الثاني ٧١٥م)، وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك مريضاً.

وتوفي الخليفة الوليد في منتصف جمادى الآخرة أي بعد وصول موسى بن نصير بأربعين يوماً. وبويع

سليمان بن عبد الملك بالخلافة في اليوم التالي لوفاة أخيه الوليد.

وأكرم الخليفة سليمان ضيفه موسى بن نصير لما بذله للجهاد في سبيل الله، وللفتح الذي تمّ بفضل الله على يديه، وهو في مثل هذه السنّ، فأبقى أبناءه ولاةً حيث وضعهم أبوهم، عبد الله في القيروان ينظّم شؤون إفريقية، وعبد الملك في طنجة يتعهّد شؤون المغرب الأقصى، وعبد العزيز في إشبيلية يدير أمور الأندلس، فكان تحت يد أبناء موسى من غربي بلاد مصر حتى بلاد الفرنجة (فرنسا) فإبقاؤهم في مراكزهم تكريم كبير لأبيهم، واعتراف بمكانةٍ واسعة له، وهذا يخالف ما يقوله المغرضون، ويُدوّنه، ويُردّده، ويشيعه الأعداء.

وفي سنة سبعٍ وتسعين حجّ الخليفة سليمان بن عبد الملك فدعا موسى ليكون معه محبةً وإكراماً، فلبى موسى الدعوة وانطلق الموكب، وفي وادي القرى حان أجل موسى فتوفي هناك، وقد ناهز الثامنة والثمانين من العمر ـ رحمه الله ـ.

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك قد استشار أخاه مسلمة بن عبد الملك، وموسى بن نصير بغزو القسطنطينية.

أما طارق بن زياد فعاش في دمشق مكرماً، وقد عرض عليه الخليفة سليمان بن عبد الملك ولاية الأندلس، فرفض، إذ صَعُب عليه أن يحلّ محلّ ابن سيّده، وأمضى طارق بن زياد بقية حياته في دمشق بعيداً عن أمور الخلافة ـ رحمه الله ـ.

الفصل الثالث

العُمرانُ في عهْد الوَليد

رأينا أن الفتوحات كانت واسعةً في عهد الوليد، وقد شملت مختلف الجبهات، وإن البلدان التي فتحها المسلمون كانت تخضع قبل فتحها لحكام شغلتهم أنفسهم وزين لهم الشيطان دنياهم فجمعوا وكنزوا، وحازوا وتملّكوا، فكانت ثرواتهم أكداساً، وقلّدتهم حاشيتهم فأخذت ما أمكنها أخذه، وحوت ما استطاعت احتواءه، ولم يكن الدهاقين أقلّ جشعاً، ولا دون غيرهم طمعاً، ولا أعفّ نفساً من سواهم حيث كانوا يجمعون باسم المعابد التي يشرفون عليها والأصنام التي يدعون سدانتها فيضعون القليل في المعابد، والضئيل عند الأصنام ويحوزون على ما بقي، وهو الأكثر. هذه الأموال كلها أصبحت غنائم للمسلمين إضافةً إلى ما حصلوا عليه من البلدان التي فتحوها عَنوةً، والأقاليم التي صالحوا عليها، والكور التي دخلوها وقد فرّ أهلوها.

نقلت أحمال من هذه الأموال إلى قاعدة الخلافة في دمشق، ونظر إليها الخليفة فرأى خيراً كثيراً، وفيضاً كبيراً يزداد مع تقدّم الفتوح، ويكثر مع مرور الأيام فرأى إنفاق ما يستطيع إنفاقه في عمل الخير وسعادة السكان، ولم يجد أفضل من بناء المساجد، وعمارة المشافي، وعطاء الأهالي، ومساعدة من يحتاج المساعدة حسب حاجته، وأسلوب عمله، ولعل أهم ما يلفت النظر، ويعطي الصورة الواضحة عن خلافة الوليد:

١ ـ عمارة المسجد النبوي:

أمر الوليد بن عبد الملك بهدم مسجد رسول الله، ﷺ، وهدم بيوت أمهات المؤمنين وإدخالها في المسجد، فذكر محمد بن عمر: أن محمد بن جعفر بن وَرْدَان البنّاء، قال: رأيت الرسول الذي بعثه الوليد بن عبد الملك قدم في شهر ربيعِ الأول سنة ثمانٍ وثمانين، قدم معتجراً، فقال الناس: ما قدم به الرسول، فدخل على عمر بن عبد العزيز بكتاب الوليد يأمره بإدخال حُجَرِ أزواج رسول الله، ﷺ، في مسجد رسول الله، وأن يشتري ما في مُؤَخَّره ونواحيه حتى يكون مائتي ذراعٍ في مائتي ذراع ، ويقول: قدّم القبلة إن قدرت، وأنت تقدر لمكانَ أخوالك، فإنهم لا

يخالفونك، فمن أبى منهم فَمُرْ أهل المصر فليقوّموا له قيمة عدل، ثم اهدم عليهم وادفع الأثمان، فإن لك في ذلك سَلَفَ صدقٍ، عمر وعثمان، فأقرأهم كتاب الوليد وهم عنده، فأجاب القوم إلى الثمن، فأعطاهم إيّاه، وأخذ في هدم بيوت أزواج النبي ﷺ، وبناء المسجد، فلم يلبث إلا يسيراً حتى قدم الفَعَلَة، بعث بهم الوليد.

قال محمد بن عمر: وحدّثني موسى بن يعقوب، عن عمه، قال: رأيت عمر بن عبد العزيز يهدم المسجد ومعه وجوه الناس: القاسم، وسالم، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وخارجة بن زيد، وعبد الله بن عبد الله بن عمر، يُرونه أعلاماً في المسجد ويُقدّرونه، فأسّسوا أساسه.

وقال محمد بن عمر: عن صالح بن كيسان، قال: لما جاء كتاب الوليد من دمشق، وسار خمس عشرة بهدم المسجد، تجرّد عمر بن عبد العزيز. قال صالح: فاستعملني على هدمه وبنائه، فهدمناه بعمال المدينة فبدأنا بهدم بيوت أزواج النبي، ﷺ، حتى قدم علينا الفَعَلَة الذين بعث بهم الوليد.

وقال: ابتدأنا بهدم مسجد رسول الله، ﷺ، في صفر من سنة ثمانٍ وثمانين[1].

ولما جاء كتاب الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم المسجد النبوي وتوسعته جمع عمر بن عبد العزيز وجوه الناس والفقهاء العشرة وأهل المدينة، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ـ الوليد، فشق عليهم ذلك، وقالوا: هذه حجر قصيرة السقوف، وسقوفها من جريد النخل، وحيطانها من اللبِن، وعلى أبوابها المسوح، وتركها على حالها أولى لينظر إليها الحجاج والزوّار والمسافرون، وإلى بيوت النبي، ﷺ، فينتفعوا بذلك، ويعتبروا به، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا، فلا يعمرون فيها إلا بقدر الحاجة، وهو ما يستر ويُكِنّ، ويعرفون أن هذا البنيان العالي إنما هو من أعمال الفراعنة والأكاسرة، وكل طويل الأمل راغب في الدنيا وفي الخلود فيها.

فعند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة، فأرسل إليه يأمره بالخراب، وبناء المسجد على ما ذكر، وأن يعلي سقوفه، فلم يجد

---

(١) تاريخ الطبري.

عمر بُدّاً من هدمها. ولما شرعوا في الهدم صاح الأشراف ووجوه الناس من بني هاشم وغيرهم، وتباكوا مثل يوم مات النبي، ﷺ. وأجاب من له ملك متاخم للمسجد للبيع، فاشترى منهم، وشرع في بنائه، وشمر عن إزاره، واجتهد في ذلك، وأرسل الوليد إليه فُعولاً كثيرة، فأدخل فيه الحجرة النبوية ـ حجرة عائشة ـ فدخل القبر في المسجد، وكانت حدّه من الشرق وسائر حُجر أمهات المؤمنين، كما أمر الوليد. وروي أنهم لما حفروا الحائط الشرقي من حجرة عائشة بدت لهم قدم، فخشوا أن تكون قدم النبي، ﷺ، حتى تحقّقوا أنها قدم عمر ـ رضي الله عنه ـ ويحكى أن سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة في المسجد ـ كأنه خشي أن يتخذ القبر مسجداً ـ والله أعلم ـ[1].

وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يحفر الفوارة بالمدينة، وأن يجري ماءها، ففعل، وأمره أن يحفر الآبار، وأن يسهل الطرق والثنايا، وساق إلى الفوارة الماء من ظاهر المدينة، والفوارة بُنيت في ظاهر المسجد عند بقعةٍ رآها فأعجبته[2].

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) المصدر السابق نفسه.

قال صالح بن كيسان: كتب الوليد إلى عمر في تسهيل الثنايا وحفر الآبار بالمدينة، وخرجت كتبه إلى البلدان بذلك، وكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله بذلك، قال: وحبس المجذّمين عن أن يخرجوا على الناس، وأجرى عليهم أرزاقاً، وكانت تجرى عليهم.

وقال: كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يعمل الفوارة التي عند دار يزيد بن عبد الملك اليوم، فعملها عمر، وأجرى ماءها، فلما حج الوليد وقف عليها، فنظر إلى بيت الماء والفوارة، فأعجبته وأمر لها بقُوّام يقومون عليها، وأن يسقى أهل المسجد منها، ففُعل ذلك.

٢ ـ عمارة الجامع الأموي بدمشق:

كان ابتداء عمارة جامع دمشق في أواخر سنة ستٍ وثمانين، هُدمت الكنيسة التي كانت موضعه في ذي القعدة منها، فلما فرغوا من الهدم شرعوا في البناء، وتكامل في عشر سنوات، فكان الفراغ منه في سنة ستٍ وتسعين، وفيها توفي بانيه الوليد بن عبد الملك وقد بقيت فيه بقايا، فكملها أخوه سليمان. فأما قول يعقوب بن سفيان: سألت هشام بن عمارة عن قصة

مسجد دمشق وهذه الكنيسة، قال: كان الوليد قال للنصارى: ما شئتم، إنا أخذنا كنيسة توما عنوةً، وكنيسة الداخلة صلحاً، فأنا أهدم كنيسة توما ـ قال هشام وتلك أكبر من الداخلة ـ قال: فرضوا أن يهدم كنيسة الداخلة، وأدخلها في المسجد، قال: وكان بابها قبلة المسجد اليوم، وهو المحراب، الذي يُصلّي فيه، قال: وهدم الكنيسة في أول خلافة الوليد سنة ستٍ وثمانين، ومكثوا في بنائها عشر سنين حتى مات الوليد، ولم يتم بناؤه، فأتمه سليمان من بعده(١).

وكان موقع هذا الجامع قديماً معبداً بنته اليونان الكلدانيون الذين كانوا يعمرون دمشق، وهم الذين وضعوها وعمروها أولاً، فهم أول من بناها، وكانوا يعبدون الكواكب السبعة المتميزة، وهي القمر في السماء الدنيا، وعطارد في السماء الثانية، والزهرة في السماء الثالثة، والشمس في السماء الرابعة، والمريخ في الخامسة، والمشتري في السادسة، وزُحل في السابعة. وقد كانوا صوروا على كل بابٍ من أبواب دمشق هيكلاً لكوكبٍ من هذه الكواكب السبعة، وكانت أبواب دمشق

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

سبعة وضعوها قصداً لذلك، فنصبوا هياكل سبعة، لكل كوكبٍ هيكل، وكان لهم عند كل بابٍ من أبواب دمشق عيد في السنة، وهؤلاء هم الذين وضعوا الأرصاد، وتكلّموا على حركات الكواكب، واتصالاتها، ومقارنتها، وبنوا دمشق واختاروا لها هذه البقعة إلى جانب الماء الوارد من بين هذين الجبلين، وصرفوه أنهاراً تجري إلى الأماكن المرتفعة والمنخفضة، وسلكوا الماء في أفناء أبنية الدور بدمشق.

فكانت دمشق في أيامهم من أحسن المدن، بل هي أحسنها، لما فيها من التصاريف العجيبة، وبنوا هذا المعبد - وهو الجامع اليوم - في جهة القطب، وكانوا يصلّون إلى القطب الشمالي، وكانت محاريبهم إلى جهته، وكان باب معبدهم يفتح إلى جهة القبلة، خلف المحراب اليوم، كما شاهدنا ذلك عياناً، ورأينا محاريبهم إلى جهة القطب، ورأينا الباب - وهو باب حسن - مبني بحجارةٍ منقوشة، وعليه كتابة بخطهم، وعن يمينه ويساره بابان صغيران بالنسبة إليه، وكان غربي المعبد قصر منيف جداً تحمله هذه الأعمدة التي بباب البريد، وشرقي المعبد قصر جيرون الملك - الذي كان ملكهم، وكان هناك داران عظيمتان مُعّدتان لمن

يتملك دمشق قديماً منهم، ويقال: إنه كان مع المعبد ثلاث دورٍ عظيمةٍ للملوك، ويحيط بهذه الدور والمعبد سور واحد عالٍ منيف، بحجارة كبار منحوتة، وهن: دار المطبق، ودار الخيل، ودار كانت مكان الخضراء التي بناها معاوية.

قال ابن عساكر فيما حكاه عن كتب بعض الأوائل: إن اليونان مكثوا يأخذون الطالع لبناء دمشق وهذه الأماكن ثماني عشرة سنةً، وقد حفروا أساس الجدران حتى واتاهم الوقت الذي طلع فيه الكوكبان اللذان أرادوا أن هذا المعبد لا يخرب أبداً، ولا تخلو منه العبادة، وأن هذه الدار إذا بُنيت لا تخلو من أن تكون دار الملك والسلطنة. قلت: أما المعبد فلم يخل من العبادة. قال كعب الأحبار: لا يخلو منها حتى تقوم الساعة، وأما دار الملك التي هي الخضراء، فقد جدّد بناءها معاوية، ثم أُحرقت في سنة إحدى وستين وأربعمائة، فبادت وصارت مساكن ضعفاء الناس وأراذلهم في الغالب إلى زماننا هذا.

والمقصود أن اليونان استمروا على هذه الصفة التي ذكرناها بدمشق مدداً طويلة تزيد على أربعة آلاف سنةٍ، حتى إنه يقال: إن أول من بنى جدران هذا المعبد

الأربعة هو هود عليه الصلاة والسلام، وقد كان هود قبل إبراهيم الخليل بمدةٍ طويلةٍ، وقد ورد إبراهيم الخليل دمشق ونزل شمالها عند برزة، وقاتل هناك قوماً من أعدائه فظفر بهم، ونصره الله عليهم، وكان مقامه لمقاتلتهم عند برزة، فهذا المكان المنسوب إليه بها منصوص عليه في الكتب المتقدمة، يأثرونه كابراً عن كابر، وإلى زماننا ـ والله أعلم.

وكانت دمشق إذ ذاك عامرةً آهلةً بمن فيها من اليونان، وكانوا خلقاً لا يحصيهم إلا الله، وهم خصماء الخليل، وقد ناظرهم الخليل في عبادتهم الأصنام والكواكب وغيرها في غير موضعٍ، كما قررنا ذلك في التفسير، وفي قصة الخليل من كتابنا هذا «البداية والنهاية» ولله الحمد، وبالله المستعان.

والمقصود أن اليونان لم يزالوا يعمرون دمشق، ويبنون فيها، وفي معاملاتها من أرض حوران والبقاع وبعلبك وغيرها البنايات الهائلة الغريبة العجيبة، حتى إذا كان بعد المسيح بمدة نحو من ثلاثمائة سنةٍ تنصّر أهل الشام على يد الملك قسطنطين بن قسطنطين الذي بنى المدينة المشهورة به ببلاد الروم وهي القسطنطينية، وهو الذي وضع لهم القوانين، وقد كان أولاً هو وقومه،

وغالب أهل الأرض يوناناً، ووضعت له بطارقته النصارى ديناً مخترعاً مركباً من أصل دين النصرانية، ممزوجاً بشيءٍ من عبادة الأوثان، وصلوا به إلى الشرق، وزادوا في الصيام، وأحلوا الخنزير، وعلموا أولادهم الأمانة الكبيرة فيما يزعمون، وإنما هي في الحقيقة خيانة كبيرة، وجناية كثيرة حقيرة، وهي مع ذلك في الحجم صغيرة. وقد تكلمنا على ذلك فيما سلف وبيّناه. فبنى لهم هذا الملك الذي تنسب إليه الطائفة الملكية من النصارى، كنائس كبيرة في دمشق وفي غيرها، حتى يقال: إنه بنى اثنتي عشرة ألف كنيسة، وأوقف عليها أوقافاً دارّةً؛ من ذلك: كنيسة بيت لحم، وقمامة في القدس، بنتها أم هيلانة العندقانية، وغير ذلك.

والمقصود: أنهم ـ يعني النصارى ـ حولوا بناء هذا المعبد الذي هو بدمشق معظماً عند اليونان، فجعلوه كنيسة يوحنّا، وبنوا بدمشق كنائس كثيرة غيرها مستأنفة، واستمر النصارى على دينهم بدمشق، وغيرها نحواً من ثلاثمائة سنةٍ، حتى بعث الله محمداً، ﷺ، فكان من شأنه ما تقدّم بعضه في كتاب السيرة من هذا الكتاب. وقد بعث إلى ملك الروم في زمانه ـ وهو قيصر ذلك الوقت ـ واسمه هرقل، يدعوه إلى الله عزّ وجلّ، وكان

من مراجعته ومخاطبته إلى أبي سفيان ما تقدّم، ثم بعث أمراءه الثلاثة: زيد بن حارثة، وجعفراً، وابن رواحة إلى البلقاء من تخوم الشام، فبعث إليهم الروم جيشاً كبيراً، فقتلوا هؤلاء الأمراء، وجماعةً ممن معهم من الجيش. فعزم النبيّ، ﷺ، على قتال الروم، ودخول الشام عام تبوك، ثم رجع ذاك العام لشدّة الحر، وضعف الحال، وضيقه على الناس.

ثم لما توفي بعث الصديق الجيوش إلى الشام بكمالها، ومن ذلك مدينة دمشق بأعمالها، وقد بسطنا القول في ذلك عند ذكر فتحها.

فلما استقرّت اليد الإسلامية عليها، وأنزل الله رحمته فيها، وساق بِرّه إليها، وكتب أمير الفتح أبو عبيدة إذ ذاك ـ وقيل خالد بن الوليد ـ لأهل دمشق كتاب أمانٍ، أقروا أيدي النصارى على أربع عشرة كنيسةً، وأخذوا منهم نصف هذه الكنيسة التي كانوا يُسمّونها كنيسة يوحنا، بحكم أن البلد فتحه خالد من الباب الشرقي بالسيف، وأخذت النصارى الأمان من أبي عبيدة، وكان على باب الجابية الصلح، فاختلفوا ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف البلد صلحاً ونصفه عنوةً؛ فأخذوا نصف هذه الكنيسة الشرقي، فجعله أبو عبيدة مسجداً يصلّي فيه

المسلمون، وكان أول من صلّى في هذا المسجد أبو عبيدة، ثم الصحابة بعده في البقعة الشرقية منه، التي يقال لها: محراب الصحابة. ولكن لم يكن الجدار مفتوحاً بمحرابٍ منحنٍ، ولكن كانوا يصلون عند هذه البقعة المباركة. والظاهر أن الوليد هو الذي فتق المحاريب في الجدار القبلي.

قلت: هذه المحاريب متجددة ليست من فتق الوليد، وإنما فتق الوليد محراباً واحداً، إن كان قد فعل، ولعله لم يفعل شيئاً منها، فكان يصلي فيه الخليفة، وبقيتها فُتقت قريباً، لكل إمام محراب، شافعي، وحنفي، ومالكي، وحنبلي، وهؤلاء إنما حدثوا بعد الوليد بزمان.

وقد كره كثير من السلف مثل هذه المحاريب، وجعلوه من البدع المحدثة، وكان المسلمون والنصارى يدخلون هذا المعبد من بابٍ واحدٍ وهو باب المعبد الأول من جهة القبلة مكان المحراب الكبير الذي هو في المقصورة اليوم، فينصرف النصارى إلى جهة الغرب إلى كنيستهم، ويأخذ المسلمون يمنةً إلى مسجدهم، ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم، ولا يضربوا بناقوسهم؛ إجلالاً للصحابة، ومهابةً، وخوفاً.

وقد بنى معاوية في أيام ولايته على الشام دار الإمارة قبلي المسجد الذي كان للصحابة، وبنى فيها قبةً خضراء، فعرفت الدار بكمالها بها، فسكنها معاوية أربعين سنةً، ثم لم يزل الأمر على ما ذكرنا من أمر هذه الكنيسة ـ شطرين بين المسلمين والنصارى، من سنة أربع عشر إلى سنة ست وثمانين في ذي القعدة منها، وقد صارت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك في شوال منها، فعزم الوليد على أخذ بقية هذه الكنيسة، وإضافتها إلى ما بأيدي المسلمين منها، وجعل الجميع مسجداً واحداً، وذلك لأن بعض المسلمين كان يتأذّى بسماع قراءة النصارى للإنجيل، ودفع أصواتهم في صلواتهم، فأحب أن يبعدهم عن المسلمين، وأن يضيف ذلك المكان إلى هذا، فيصير كله معبداً للمسلمين، ويتسع المسجد لكثرة المسلمين، فعند ذلك طلب النصارى وسأل منهم أن يخرجوا له عن هذا المكان، ويعوّضهم إقطاعاتٍ كثيرةً، وعرضها عليهم، وأن يبقى بأيديهم أربع كنائس لم تدخل في العهد، وهي: كنيسة مريم، كنيسة المصلبة داخل باب شرقي، وكنيسة تل الجبن، وكنيسة حميد بن درّة التي بدرب الصقل، فأبوا ذلك أشدّ الإباء، فقال: ائتوني بعهودكم التي بأيديكم من زمن الصحابة، فأتوا بها، فقرئت بحضرة الوليد، فإذا كنيسة توما ـ التي

كانت خارج باب توما على حافة النهر ـ لم تدخل في العهد، وكانت فيما يقال ـ أكبر من كنيسة يوحنا ـ فقال الوليد: أنا أهدمها وأجعلها مسجداً، فقالوا: بل يتركها أمير المؤمنين وما ذكر من الكنائس، ونحن نرضى ونطيب له نفساً ببقية هذه الكنيسة، فأقرهم على تلك الكنائس، وأخذ منهم بقية هذه الكنيسة. هذا قول.

ويقال: إن الوليد لما أهمّه ذلك، وعرض ما عرض على النصارى فأبوا من قبوله، دخل عليه بعض الناس، فأرشده إلى أن يقيس من باب شرقي ومن باب الجابية، فوجدوا أن الكنيسة دخلت في العنوة، وذلك أنهم قاسوا من باب شرقي، ومن باب الجابية فوجدوا منتصف ذلك عند سوق الريحان تقريباً، فإن الكنيسة قد دخلت في العنوة فأخذها.

وحُكي عن المغيرة ـ مولى الوليد ـ قال: دخلت على الوليد فوجدته مهموماً، فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين مهموماً؟ فقال: إنه قد كثر المسلمون وقد ضاق بهم المسجد، فأحضرت النصارى، وبذلت لهم الأموال في بقية هذه الكنيسة لأضيفها إلى المسجد فيتسع على المسلمين فأبوا، فقال المغيرة: يا أمير المؤمنين! عندي ما يزيل همك، قال: وما هو؟ قلت: الصحابة لما أخذوا

دمشق دخل خالد بن الوليد من باب شرقي بالسيف، فلما سمع أهل البلد بذلك فزعوا إلى أبي عبيدة يطلبون منه الأمان فأمنهم، وفتحوا له باب الجابية، فدخل منه أبو عبيدة بالصلح، فنحن نماسحهم إلى أي موضعٍ بلغ السيف أخذناه، وما بالصلح تركناه بأيديهم، وأرجو أن تدخل الكنيسة كلها في العنوة، فتدخل في المسجد. فقال الوليد: فرّجت عني، فتولّ أنت ذلك بنفسك، فتولاّه المغيرة، ومسح من الباب الشرقي نحو باب الجابية إلى سوق الريحان، فوجد السيف لم يزل عاملاً حتى جاوز القنطرة الكبيرة بأربع أذرع وكسرٍ، فدخلت الكنيسة في المسجد، فأرسل الوليد إلى النصارى فأخبرهم وقال إن هذه الكنيسة كلها دخلت في العنوة فهي لنا دونكم، فقالوا: إنك أولاً دفعت إلينا الأموال وأقطعتنا الإقطاعات فأبينا، فمن إحسان أمير المؤمنين أن يصالحنا، فيبقي لنا هذه الكنائس الأربع بأيدينا، ونحن نترك له بقية هذه الكنيسة، فصالحهم على إبقاء هذه الأربع الكنائس ـ والله أعلم ـ.

وقيل: إنه عوضهم عنها كنيسة عند حمام القاسم عند باب الفراديس داخله، فسموها يوحنا باسم تلك الكنيسة التي أخذت منهم، وأخذوا شاهدها، فوضعوه فوق التي أخذوها بدلها ـ فالله أعلم ـ.

ثم أخذ الوليد بإحضار آلات الهدم، واجتمع إليه الأمراء والكبراء، وجاء إليه أساقفة النصارى وقساوستهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين إنا نجد في كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يُجَنّ، فقال الوليد: أنا أحب أن أجنّ في الله، ووالله لا يهدم فيها أحد شيئاً قبلي، ثم صعد المنارة الشرقية ذات الأضالع المعروفة بالساعات، وكانت صومعة هائلة فيها راهب عندهم، فأمره الوليد بالنزول منها، فأكبر الراهب ذلك، فأخذ الوليد بقفاه فلم يزل يدفعه حتى أنزله منها، ثم صعد الوليد إلى أعلى مكانٍ في الكنيسة، فوق المذبح الأكبر منها، الذي يسمّونه الشاهد، وهو تمثال في أعلى الكنيسة، فقال له الرهبان: احذر الشاهد، فقال: أنا أول ما أضع فأسي في رأس الشاهد، ثم كبّر وضربه فهدمه، وكان على الوليد قباء أصفر لونه سفرجليّ قد غرز أذياله في المنطَقة، ثم أخذ فأساً بيده فضرب بها في أعلى حجرٍ فألقاه فتبادر الأمراء إلى الهدم، وكبّر المسلمون ثلاث تكبيرات، وصرخت النصارى بالعويل على درج جيرون، وكانوا قد اجتمعوا هناك، فأمر الوليد بن عبد الملك أمير الشرطة - أبو نائل رياح الغساني - أن يضربهم حتى يذهبوا من هنالك، ففعل ذلك. فهدم الوليد والأمراء جميع ما جدّده النصارى على تربيع هذا المعبد من المذابح، والأبنية،

والحنايا، حتى بقي المكان صرحةً مربعةً، ثم شرع في بنائه بفكرةٍ جيدةٍ على هذه الصفة الحسنة الأنيقة التي لم يشتهر مثلها قبلها.

وقد استعمل الوليد في بناء هذا المسجد خلقاً كثيراً من الصناع والمهندسين والفعلة، وكان المستحث على عمارته أخوه وولي عهده سليمان بن عبد الملك، ويقال: إن الوليد بعث إلى ملك الروم يطلب منه صُنّاعاً في الرخام وغير ذلك، ليستعين بهم على عمارة هذا المسجد على ما يريد، وأرسل يتوعّده لئن لم يفعل ليغزون بلاده بالجيوش، وليُخرّبن كل كنيسة في بلاده حتى كنيسة القدس، وهي قُمامة، وكنيسة الرها، وسائر آثار الروم، فبعث ملك الروم إليه صُنّاعاً كثيرين جداً، مائتي صانع، وكتب إليه يقول: إن كان أبوك فهم الذي تصنعه وتركه فإنه لوصمة عليك، وإن لم يكن فهمه وفهمت أنك لوصمة عليه، فلما وصل ذلك إلى الوليد أراد أن يجيب عن ذلك، واجتمع الناس عنده لذلك، فكان فيهم الفرزدق الشاعر، فقال: أنا أُجيبه يا أمير المؤمنين من كتاب الله. قال الوليد: وما هو؟ ويحك! فقال: قال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَٰنَ

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[1]. وسليمان هو ابن داود، ففهّمه الله ما لم يَفْهَمْهُ أبوه. فأعجب ذلك الوليد، فأرسل به جواباً إلى ملك الروم. وقال الفرزدق في ذلك.

فرقت بين النصارى في كنائسهم
والعابدين مع الأسحار والعتم
وهم جميعاً إذا صلّوا وأوجههم
شتى إذا سجدوا لله والصنم
وكيف يجتمع الناقوس يضربه
أهل الصليب مع القُرّاء لم تنم
فهمتُ تحويلها عنهم كما فهما
إذ يحكمان لهم في الحرث والغنم
داود والملك المهدي إذ جزّآ
ولادها واجتزاز الصوف بالجلم
فهمك الله تحويلاً لبيعتهم
عن مسجدٍ فيه يُتلى طيّب الكلم
ما من أب حملته الأرض نعلمه
خير بنين ولا خير من الحكم

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٩.

قال الحافظ عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم الدمشقي: بنى الوليد ما كان داخل حيطان المسجد، وزاد في سمك الحيطان. وقال الحسن بن يحيى الخشني: إن هوداً عليه السلام هو الذي بنى الحائط القبلي من مسجد دمشق. وقال غيره: لما أراد الوليد بناء القبة التي وسط الرواقات ـ وهي قبة النسر، وهو اسم حادث لها، وكأنهم شبهوها بالنسر في شكله، لأن الرواقات عن يمينها وشمالها كالأجنحة لها ـ حفر لأركانها حتى وصلوا إلى الماء، وشربوا منه ماءً عذباً زلالاً، ثم إنهم وضعوا فيها زيادة الكرم، وبنوا فوقها بالحجارة، فلما ارتفعت الأركان بنوا عليها القبة فسقطت، فقال الوليد لبعض المهندسين: أريد أن تبني لي أنت هذه القبة، فقال: على أن تعطيني عهد الله وميثاقه على أن لا يبنيها أحد غيري، ففعل. فبنى الأركان ثم غلفها بالبواري، وغاب عنها سنةً كاملَة لا يدري الوليد أين ذهب، فلما كان بعد السنة حضر، فهمّ به الوليد فأخذه ومعه رؤوس الناس، فكشف البواري عن الأركان فإذا هي هبطت بعد ارتفاعها حتى ساوت الأرض، فقال له: من هذا أتيت، ثم بناها فانعقدت.

وقال بعضهم: أراد الوليد أن يجعل بيضة القبة من

ذهبٍ خالصٍ ليعظم بذلك شأن هذا البناء، فقال له المعماري: لا تقدر على ذلك، فضربه خمسين سوطاً، وقال له: ويلك أنا لا أقدر على ذلك، وتزعم أني أعجز عنه؟ وخراج الأرض وأموالها تجبى إليّ، قال: نعم أنا أبين ذلك، قال: فبيّن ذلك، قال: اضرب لبنةً واحدةً من الذهب، وقس عليها ما تريد هذه القبة من ذلك، فأمر الوليد فأُحضر من الذهب ما ضرب منه لبنة، فإذا هي قد دخلها ألوف من الذهب، فقال: يا أمير المؤمنين! إنا نريد مثل هذه اللبنة كذا وكذا ألف لبنةٍ، فإن كان عندك ما يكفي من ذلك عملناه، فلما تحقق صحة قوله أطلق له الوليد خمسين ديناراً، وقال: إني لا أعجز عما قلت، ولكن فيه إسراف وضياع مالٍ في غير وجهه اللائق به، ولأن يكون ما أردنا من ذلك نفقة في سبيل الله ورداً على ضعفاء المسلمين، خير من ذلك. ثم عقدها على ما أشار به المعماري.

ولما سقف الوليد الجامع جعلوا سقفه جملونات، وباطنها مسطحاً مقرنصاً بالذهب فقال له بعض أهله: أتعبت الناس بعدك في طين أسطحتهم، لما يريد هذا المسجد في كل عام من الطين الكثير ـ يشير إلى أن التراب يغلو والفَعَلة تقلّ لأجل العمل في هذا المسجد

في كل عام - فأمر الوليد أن يجمع ما في بلاده من الرصاص ليجعله عوض الطين، ويكون أخفّ على السقوف. فجمع من كل ناحيةٍ من الشام وغيره من الأقاليم، فعازوا فإذا عند امرأةٍ منه قناطير مقنطرةً، فساوموها فيه، فقالت: لا أبيعه إلا بوزنه فضة، فكتبوا إلى الوليد، فقال: اشتروه منها ولو بوزنه فضة، فلما بذلوا لها ذلك قالت: أما إذا قلتم ذلك فهو صدقة لله يكون في سقف هذا المسجد، فكتبوا على ألواحها بطابع «لله» و...

وقال محمد بن عائذ: سمعت المشايخ يقولون: ما تمّ بناء مسجد دمشق إلا بأداء الأمانة، لقد كان يفضل عند الرجل من القوم، أو الفعلة الفلس ورأس المسمار، فيأتي به حتى يضعه في الخزانة.

وقال بعض مشايخة الدماشقة: ليس في الجامع من الرخام شيء إلا الرخامتان اللتان في المقام من عرش بلقيس، والباقي كله مرمر.

وقال بعضهم: اشترى الوليد العمودين الأخضرين اللذين تحت النسر من حرب بن خالد بن يزيد بن معاوية بألف وخمسمائة دينار.

وقال دحيم عن الوليد بن مسلم: حدثنا مروان بن جناح، عن أبيه، قال: كان في مسجد دمشق اثنا عشر ألف مرخم.

وقال أبو قصي، عن دحيم، عن الوليد بن مسلم، عن عمرو بن مهاجر الأنصاري: إنهم حسبوا ما أنفقه الوليد على الكرمة[1] التي في قبلي المسجد، فإذا هي سبعون ألف دينار.

وقال أبو قصي: أنفق في مسجد دمشق أربعمائة صندوق من الذهب، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار. وفي رواية: في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار.

قلت: فعلى الأول يكون ذلك خمسة آلاف ألف دينار، وستمائة ألف دينار، وعلى الثاني يكون المصروف في عمارة الجامع الأموي أحد عشرة ألف ألف دينار، ومائتي ألف دينار. وقيل: إنه صرف أكثر من ذلك بكثير - والله أعلم -.

---

(١) الكرمة: هي فسيفساء على هيئة الكرم مؤلفة من قطع صغيرة من الزجاج المربع مبطن بالذهب أو الألوان، وكان منها بقايا إلى أيام الحريق الأخير سنة ١٣١١هـ، ويوجد قريب منها في قبة الملك الظاهر بدمشق إلى اليوم.

قال أبو قصي: وأتى الحرسي إلى الوليد، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس يقولون: أنفق أمير المؤمنين بيوت الأموال في غير حقها. فنودي في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد الوليد المنبر، وقال: إنه بلغني عنكم أنكم قلتم: أنفق الوليد بيوت الأموال في غير حقها، ثم قال: يا عمرو بن مهاجر! قم فأحضر أموال بيت المال، فحملت على البغال إلى الجامع، ثم بسط لها الأنطاع تحت قبة النسر، ثم أفرغ عليها المال ذهباً صبيباً، وفضةً خالصةً، حتى صارت كوماً، حتى كان الرجل إذا قام من الجانب الواحد لا يرى الرجل من الجانب الآخر، وهذا شيء كثير، ثم جيء بالقبانين، فوزنت الأموال، فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلية. وفي رواية ست عشر سنة مستقبلية، لو لم يدخل للناس شيء بالكلية، فقال لهم الوليد: والله ما أنفقت في عمارة هذا المسجد درهماً من بيوت المال، وإنما هذا كله من مالي، ففرح الناس، وكبّروا، وحمدوا الله عزّ وجلّ على ذلك، ودعوا للخليفة وانصرفوا شاكرين داعين. فقال لهم الوليد: يا أهل دمشق! والله ما أنفقت في بناء هذا المسجد شيئاً من بيوت المال، وإنما هذا كله من مالي، لم أرزأكم من أموالكم شيئاً.

ثم قال الوليد: يا أهل دمشق، إنكم تفخرون على الناس بأربعٍ: بهوائكم، ومائكم، وفاكهتكم، وحماماتكم؛ فأحببت أن أزيدكم خامسةً، وهي هذا الجامع.

وقال بعضهم: كان في قبلة جامع دمشق، ثلاث صفائح مذهبة باللازورد في كل منها ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾) لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا نعبد إلا إياه، ربنا الله وحده، وديننا الإسلام، ونبيّنا محمد، ﷺ. أمر ببنيان هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله أمير المؤمنين الوليد، في ذي القعدة سنة ستٍّ وثمانين. وفي صفيحةٍ أخرى رابعةٍ من تلك الصفائح: الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم إلى آخر الفاتحة، ثم عبس، ثم إذا الشمس كُوِّرت، قالوا: ثم محيت بعد مجيء المأمون إلى دمشق. وذكروا أن أرضه كانت مفضضةً كلها، وأن الرخام كان في جدرانه إلى قامات، وفوق الرخام كرمة عظيمة من ذهبٍ، وفوق الكرمة الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض، قد صوروا بها سائر البلدان المشهورة؛ الكعبة فوق المحراب، وسائر الأقاليم يمنةً ويسرةً. وصوّروا ما

في البلدان من الأشجار الحسنة المثمرة والمزهرة، وغير ذلك، وسقفه مقرنص[1] بالذهب، والسلاسل المعلقة فيها جميعها من ذهب وفضة، وأنوار الشموع في أماكن مفرقة.

قال: وكان في محراب الصحابة بَرْنيّة[2] حجر من بلور، ويقال: بل كانت حجراً من جوهر، وهي الدرة، وكانت تُسمّى القليلة، وكانت إذا طفئت القناديل تضيء لمن هناك بنورها، فلما كان زمن الأمين بن الرشيد ـ وكان يحب البلور، وقيل الجوهر ـ بعث إلى سليمان والي شرطة دمشق أن يبعث بها إليه، فسرقها الوالي خوفاً من الناس، وأرسلها إليه، فلما ولي المأمون ردّها إلى دمشق ليشنّع بذلك على الأمين. قال ابن عساكر: ثم ذهبتْ بعد ذلك فجُعل مكانها بَرْنيّة من زجاج. قال: وقد رأيت تلك البرنية، ثم انكسرت بعد ذلك، فلم يجعل مكانها شيء. قالوا: وكانت الأبواب الشارعة من داخل الصحن ليس عليها أغلاق، وإنما كان عليها الستور مُرخاة، وكذلك الستور على سائر جدرانه إلى حد الكرمة التي فوقها الفصوص المذهبة، ورؤوس الأعمدة مطلية

(١) مقرنص: مصنوع على هيئة السلم.
(٢) بَرْنيّة: إناء من خزفٍ.

بالذهب الخالص الكثير، وعملوا له شرفات تحيط به. وبنى الوليد المنارة الشمالية التي يقال لها: مأذنة العروس. فأما الشرقية والغربية فكانتا قبل ذلك بدهور متطاولة.

وقد كان في كل زاويةٍ من هذا المعبد صومعة شاهقة جداً، بنتها اليونان للرصد، ثم بعد ذلك سقطت الشماليتان، وبقيت القبليتان إلى الآن، وقد أحرق بعض الشرقية بعد الأربعين وسبعمائة، فنقضت وجُدّد بناؤها من أموال النصارى، حيث اتهموا بحريقها، فقامت على أحسن الأشكال، بيضاء بذاتها، وهي - والله أعلم - الشرفة التي ينزل عليها عيسى بن مريم في آخر الزمان بعد خروج الدجال، كما ثبت ذلك في «صحيح مسلم» عن النواس بن سمعان.

قلت: ثم أُحرق أعلى هذه المنارة وجددت، وكان أعلاها من خشب فبنيت بحجارةٍ كلها في آخر السبعين وسبعمائة، فصارت كلها مبنيةً بالحجارة.

والمقصود أن الجامع الأموي لما كمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه، ولا أبهى ولا أجمل منه، بحيث إنه إذا نظر الناظر إليه، أو إلى جهةٍ منه، أو إلى بقعةٍ أو إلى مكانٍ منه تحيّر فيها نظره لحسنه

وجماله، ولا يملّ ناظره، بل كلما أدمن النظر بانت له أعجوبة ليست كالأخرى، وكانت فيه طلسمات من أيام اليونان، فلا يدخل هذه البقعة شيء من الحشرات بالكلية؛ لا من الحيات، ولا من العقارب، ولا الخنافس، ولا العناكيب، ويقال: ولا العصافير أيضاً تعشعش فيه، ولا الحمام، ولا شيء يتأذّى به الناس، وأكثر هذه الطلسمات أو كلها ـ كانت مودعة في سقف هذا المعبد، مما يلي السبع، فأُحرقت لما أُحرق ليلة النصف من شعبان بعد العصر، سنة إحدى وستين وأربعمائة، في دولة الفاطميين. وقد كانت بدمشق طلسمات وضعتها اليونان بعضها باقٍ إلى يومنا هذا ـ والله أعلم ـ. فمن ذلك العمود الذي في رأسه مثل الكرة في سوق الشعير عند قنطرة أم حكيم، وهذا المكان يعرف اليوم بـ (العلبيين)؛ ذكر أهل دمشق أنه من وضع اليونان لعسر بول الحيوان، فإذا داروا بالحيوان حول هذا العمود ثلاث دورات انطلق باطنه فبال، وهذا مجرب من عهد اليونان.

قال ابن تيمية عن هذا العمود: إن تحته مدفون جبار عنيد، كافر يعذب، فإذا داروا بالحيوان حوله سمع العذاب فراث وبال من الخوف. قال: ولهذا يذهبون

بالدواب إلى قبور النصارى واليهود والكفار، فإذا سمعت أصوات المعذبين انطلق بولها. والعمود المشار إليه ليس له سرّ، ومن اعتقد أن فيه منفعةً أو مضرّةً، فقد أخطأ خطأ فاحشاً. وقيل: إن تحته كنزاً، وصاحبه عنده مدفون، وكان ممن يعتقد الرجعة إلى الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩﴾[1] والله سبحانه وتعالى أعلم.

وما زال سليمان بن عبد الملك يعمل في تكملة الجامع الأموي بعد موت أخيه مدة ولايته، وجُدّدت له فيه المقصورة، فلما ولي عمر بن عبد العزيز عزم على أن يُجرِّده مما فيه من الذهب، ويقلع السلاسل والرخام والفسيفساء، ويردّ ذلك كله إلى بيت المال، ويجعل مكان ذلك كله طيناً، فشقّ ذلك على أهل البلد واجتمع أشرافهم إليه، وقال خالد بن عبد الله القسري: أنا أكلمه لكم، فقال له: يا أمير المؤمنين! بلغنا عنك كذا وكذا، قال: نعم! فقال خالد: ليس ذلك يا أمير المؤمنين، فقال عمر: ولِمَ يا ابن الكافرة ـ وكانت أمه نصرانية رومية أم ولد ـ فقال: يا أمير المؤمنين إن كانت كافرةً، فقد ولدت

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٣٧.

رجلاً مؤمناً، فقال: صدقت، واستحيا عمر، ثم قال له: فلِمَ قلت ذلك؟ قال: يا أمير المؤمنين لأن غالب ما فيه من الرخام إنما حمله المسلمون من أموالهم من سائر الأقاليم، وليس هو لبيت المال، فأطرق عمر.

قالوا: واتفق في ذلك الزمان قدوم جماعةٍ من بلاد الروم رسلاً من عند ملكهم، فلما دخلوا من باب البريد، وانتهوا إلى الباب الكبير الذي تحت النسر، ورأوا ما بهر عقولهم من حُسن الجامع الباهر، والزخرفة التي لم يسمع بمثلها، صعق كبيرهم وخرّ مغشياً عليه، فحملوه إلى منزلهم، فبقي أياماً مُدْنَفاً، فلما تماثل سألوه عما عرض له فقال: ما كنت أظنّ أن يبني المسلمون مثل هذا البناء، وكنت أعتقد أن مدتهم تكون أقصر من هذا، فلما بلغ ذلك عمر بن عبد العزيز قال: أو إن الغيظ أهلك الكفار، دعوه. وسألت النصارى في أيام عمر بن عبد العزيز أن يعقد لهم مجلساً في شأن ما كان أخذه الوليد منهم، وكان عمر عادلاً، فأراد أن يردّ عليهم ما كان أخذه الوليد منهم، فأدخله في الجامع، ثم حقّق عمر القضية، ثم نظر، فإذا الكنائس التي هي خارج البلد لم تدخل في الصلح الذي كتبه لهم الصحابة، مثل كنيسة دير مران بسفح قاسيون، وهي بقرية المعظمية، وكنيسة

الراهب، وكنيسة توما خارج باب توما، وسائر الكنائس بقرى الحواجز. فخيّرهم بين ردّ ما سألوه وتخريب هذه الكنائس كلها، أو تبقى تلك الكنائس، ويطيبوا نفساً للمسلمين بهذه البقعة، فاتفقت آراؤهم بعد ثلاثة أيامٍ على إبقاء تلك الكنائس، ويكتب لهم كتاب أمانٍ بها، ويطيبوا نفساً بهذه البقعة، فكتب لهم أماناً بها.

والمقصود أن الجامع الأموي حين تكامل بناؤه ليس له في الدنيا مثيل في حسنه وبهجته. قال الفرزدق: أهل دمشق في بلادهم في قصرٍ من قصور الجنة ـ يعني الجامع. وقال أحمد بن أبي الحواري، عن الوليد بن مسلم، عن ابن ثوبان: ما ينبغي لأحدٍ من أهل الأرض أن يكون أشدّ شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق؛ لما يرون من حسن مسجدها، قالوا: ولما دخل أمير المؤمنين المهدي دمشق ـ يريد زيارة القدس ـ نظر إلى جامع دمشق، فقال لكاتبه أبي عبيد الأشعري، سبقنا بنو أمية بثلاثٍ: بهذا المسجد الذي لا أعلم على وجه الأرض مثله، وبنبل الموالي، وبعمر بن عبد العزيز؛ لا يكون والله فينا مثله أبداً. ثم لما أتى بيت المقدس، فنظر إلى الصخرة ـ وكان عبد الملك بن مروان هو الذي بناها ـ قال لكاتبه: وهذه رابعة. ولما دخل المأمون دمشق فنظر

إلى جامعها، وكان معه أخوه المعتصم، وقاضيه يحيى بن أكثم، قال: ما أعجب ما فيه؟ فقال أخوه: هذه الأذهاب التي فيه، وقال يحيى بن أكثم: الرخام وهذه العقد، فقال المأمون: إني إنما أعجب من حسن بنيانه على غير مثالٍ متقدم . ثم قال المأمون لقاسم التمار: أخبرني باسم حسنٍ أَسَمي به جاريتي هذه، فقال: سمِّها مسجد دمشقَ، فإنه أحسن شيء. وقال عبد الرحمن بن عبد الحكم عن الشافعي قال: عجائب الدنيا خمسة: إحداها منارتكم هذه يعني منارة ذي القرنين باسكندرية، والثانية أصحاب الرقيم، وهم بالروم اثنا عشر رجلاً، والثالثة مرآة بباب الأندلس على باب مدينتها، يجلس الرجل تحتها، فينظر فيها صاحبه من مسافة مائة فرسخٍ، وقيل: ينظر من بالقسطنطينية، والرابعة مسجد دمشقَ، وما يوصف من الإنفاق عليه، والخامسة الرخام والفسيفساء، فإنه لا يدرى لها موضع، ويقال: إن الرخام معجون، والدليل على ذلك أنه يذوب على النار.

قال ابن عساكر: وذكر إبراهيم بن أبي الليث الكاتب ـ وكان قدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ـ في رسالةٍ له، قال: ثم أمرنا بالانتقال، فانتقلت منه إلى بلدٍ تمّت محاسنه، ووافق ظاهره باطنه، أزقته أرجة،

وشوارعه فرجة، فحيث ما مشيت شممت طيباً، وأين سعيت رأيت منظراً عجيباً، وإن أفضيت إلى جامعه شاهدت منه ما ليس في استطاعة الوصف أن يصفه، ولا الرائي أن يعرفه. وجملته أنه كنز الدهر، ونادرة الوقت، وأعجوبة الزمان، وغريبة الأوقات، ولقد أثبت الله عزّ وجلّ به ذِكراً يدرس، وخلّف به أمراً لا يخفى ولا يدرس. قال ابن عساكر: وأنشدني بعض المحدثين في جامع دمشق ـ عمره الله بذكره ـ وفي دمشق فقال:

دمشق قد شاع حسن جامعها
وما حوته رُبا مرابعها
بديعة الحسن في الكمال لما
يدركه الطرف من بدائعها
طيّبة أرضها مباركة
باليمن والسعد أخذ طالعها
جامعها جامع المحاسن قد
فاقت به المدن في جوامعها
بنية بالإتقان قد وضعت
لا ضيّع الله سعي واضعها
تذكر في فضله ورفعته
آثار صدقٍ راقت لسامعها

قد كان قبل الحريق مدهشةً
فغيّرت ناره بلاقعها
فأذهبت بالحريق بهجته
فليس يرجى إياب راجعها
إذا تفكرّت في الفصوص وما
فيها تيقّنت حذق راصعها
أشجارها لا تزال مثمرةً
لا ترهب الريح من مدافعها
كأنها من زمردٍ غُرست
في أرض تبرٍ تغشى بنافعها
فيها ثمار تخالها ينعت
وليس يُخشى فساد يانعها
تقطف باللحظ لا بجارحةِ الـ
أيدي ولا تجتنى لبايعها
وتحتها من رخامةٍ قطع
لا قطع الله كفّ قاطعها
أحكم ترخيمها المرخم قد
بان عليها إحكام صانعها
وإن تفكّرت في قناطره
وسقفه بان حذق رافعها
وإن تبيّنت حسن قبّته
تحيّر اللبّ في أضالعها

تخترق الريح في منافذها
عصفاً فتقوى على زعازعها
وأرضه بالرخام قد فرشت
ينفسح الطرف في مواضعها
مجالس العلم فيه مؤنقة
ينشرح الصدر في مجامعها
وكل بابٍ عليه مطهرة
قد أمن الناس دفع مانعها
يرتفق الناس من مرافقها
ولا يصدون عن منامعها
ولا تزال المياه جاريةً
فيها لما شُقّ من مشارعها
وسوقها لا تزال آهلةً
يزدحم الناس في شوارعها
لما يشاءون من فواكهها
وما يريدون من بضائعها
كأنها جنّة معجّلة
في الأرض لولا مسرى فحائعها
دامت برغم العدا مسلمةً
وحاطها الله من قوارعها

● روي عن قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ﴾ قال: هو مسجد دمشق ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ قال: هو مسجد بيت المقدس ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ حيث كلم الله موسى ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ وهو مكة. رواه ابن عساكر.

● وقال صفوان بن صالح، عن عبد الخالق بن زيد بن واقد عن أبيه، عن عطية بن قيس الكلابي قال: قال كعب الأحبار: ليبنينّ في دمشق مسجد يبقى بعد خراب الدنيا أربعين عاماً.

● وقال الوليد بن مسلم، عن عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن زيد، عن القاسم أبي عبد الرحمن قال: أوحى الله تعالى إلى جبل قاسيون، أن هب ظلك وبركتك إلى جبل بيت المقدس، قال: ففعل، فأوحى الله إليه: أما إذا فعلت فإني سأبني لي في خطتك بيتاً أُعبد فيه بعد خراب الدنيا أربعين عاماً، ولا تذهب الأيام والليالي حتى أردّ عليك ظلّك وبركتك. قال: فهو عند الله. بمنزلة الرجل الضعيف المتضرع.

● وقال دحيم: حيطان المسجد الأربعة من بناء هود عليه السلام، وما كان من الفسيفساء إلى فوق، فهو من بناء الوليد بن عبد الملك ـ يعني أنه رفع الجدار

فعلاه من حدّ الرخام والكرمة إلى فوق ـ. وقال غيره: إنما بنى هود الجدار القبلي فقط. ونقل عثمان بن أبي العاتكة عن أهل العلم، أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ﴾ قالوا: مسجد دمشق.

● وقال أبو بكر، أحمد بن عبد الله بن الفرج ـ المعروف بابن البرامي ـ الدمشقي: حدثنا إبراهيم بن مروان، سمعت أحمد بن إبراهيم بن ملاس يقول: سمعت عبد الرحمن بن يحيى بن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر قال: كان خارج باب الساعات صخرة يوضع عليها القربان، فما تقبل منه جاءت نار فأكلته، وما لم يتقبل منه بقي على حاله. قلت: وهذه الصخرة نُقلت إلى داخل باب الساعات، وهي موجودة إلى الآن، وبعض العامة يزعم أنها الصخرة التي وضع عليها ابنا آدم قربانهما، فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتقبّل من الآخر، فالله أعلم.

● وقال هشام بن عمار: حدثنا الحسن بن يحيى الحسني، أن رسول الله، ﷺ، ليلة أسري به «صلى في موضع مسجد دمشق». قال ابن عساكر: وهذا منقطع ومنكر جداً، ولا يثبت أيضاً لا من هذا الوجه ولا من غيره.

• وقال أبو بكر البرامي: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك بن المغيرة المقري، حدثني أبي عن أبيه، أن الوليد بن عبد الملك تقدّم إلى القوّام ليلةً من الليالي فقال: إني أريد أن أصلي الليلة في المسجد فلا تتركوا أحداً يصلي الليلة، فقال له بعضهم: يا أمير المؤمنين! هذا الخضر يصلي في المسجد في كل ليلةٍ. وفي روايةٍ: أنه قال لهم: لا تتركوا أحداً يدخله. ثم إن الوليد أتى باب الساعات، فاستفتح الباب، ففُتح له، فإذا رجل قائم بين الساعات وباب الخضراء الذي يلي المقصورة يصلي، وهو أقرب إلى باب الخضراء منه إلى باب الساعات، فقال الوليد للقوّام: ألم آمركم ألا تتركوا أحداً الليلة يصلي في المسجد؟ فقال له بعضهم: يا أمير المؤمنين هذا الخضر يصلي كل ليلةٍ في المسجد. وفي إسناد هذه الحكاية وصحتها نظر، ولا يثبت بمثلها وجود الخضر بالكلية، ولا صلاته في المكان المذكور، والله أعلم.

وقد اشتهر في الأعصار المتأخرة أن الزاوية القبلية عند باب المأذنة الغربية ـ تسمى زاوية الخضر ـ. وما أدري ما سبب ذلك. والذي ثبت بالتواتر صلاة الصحابة فيه، وكفى بذلك شرفاً له ولغيره من المساجد التي صلّوا

فيها، وأول من صلى فيه إماماً أبو عبيدة بن الجراح، وهو أمير الأمراء بالشام، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأمين هذه الأمة. وصلى فيه خلق من الصحابة مثل: معاذ بن جبل وغيره، لكن قبل أن يغيره الوليد إلى هذه الصفة، فأما بعد أن غير إلى هذا الشكل فلم يره أحد من الصحابة كذلك إلا أنس بن مالك؛ فإنه ورد دمشق سنة ثنتين وتسعين، وهو يبني فيه الوليد، فصلى فيه أنس ورأى الوليد، وأنكر أنس على الوليد تأخير الصلاة إلى آخر وقتها، كما قدمنا ذلك في ترجمة أنس، عند ذكر وفاته سنة ثلاث وتسعين. وسيصلي فيه عيسى ابن مريم إذا نزل آخر الزمان، إذا خرج الدجال وعمّت البلوى به، وانحصر الناس منه بدمشق، فينزل مسيح الهدى ويقتل مسيح الضلالة، ويكون نزوله على المنارة الشرقية بدمشق وقت صلاة الفجر، فيأتي وقد أُقيمت الصلاة، فيقول له إمام الناس: تقدّم يا روح الله، فيقول: إنما أقيمت لك، فيصلي عيسى تلك الصلاة خلف رجل من هذه الأمة، يقال: إنه المهدي، فالله أعلم.

ثم يخرج عيسى بالناس فيدرك الدجّال عند عقبة أفيق، وقيل: بباب لُدّ، فيقتله بيده هنالك. وقد ذكرنا ذلك مبسوطاً عند قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا

﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[1] وفي الصحيح عن النبي ﷺ (والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، وإماماً عادلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام).

والمقصود أن عيسى ينزل على المنارة الشرقية بدمشق، والبلد محصور محصن من الدجّال، فينزل على المنارة ـ وهي المنارة المبنية في زماننا من أموال النصارى ـ ثم يكون نزول عيسى حتفاً لهم وهلاكاً ودماراً عليهم، ينزل بين ملكين واضعاً يديه على مناكبهما، وعليه مَهْرُوذتان، وفي روايةٍ مُمَصَّرتان[2] يقطر رأسه ماءً كأنما خرج من ديماس[3]، وذلك وقت الفجر، فينزل على المنارة، وقت أقيمت الصلاة، وهذا إنما يكون في المسجد الأعظم بدمشق، وهو هذا الجامع. وما وقع في صحيح مسلم من رواية النواس بن سمعان الكلابي: فينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، كأنه ـ والله أعلم ـ مروي بالمعنى بحسب ما فهمه الراوي، وإنما هو ينزل على المنارة الشرقية بدمشق، وقد أخبر ـ ولم أقف

---

(١) سورة النساء: الآية ١٥٩.

(٢) الممصرة من الثياب: التي فيها صفرة خفيفة.

(٣) الديماس: الحمام.

عليه إلى الآن ـ أنه كذلك، في بعض ألفاظ هذا الحديث، في بعض المصنفات، والله المسؤول المأمول أن يوفّقني على هذه اللفظة، وليس في البلد منارة تعرف بالشرقية سوى هذه، وهي بيضاء بنفسها، ولا يعرف في بلاد الشام منارة أحسن منها، ولا أبهى، ولا أعلى منها، ولله الحمد والمنة.

قلت: نزول عيسى على المنارة التي بالجامع الأموي غير مستنكر، وذلك أنَ البلاء بالدجّال يكون قد عمّ فينحصر الناس داخل البلد، ويحصرهم الدجال بها، ولا يتخلّف أحد عن دخول البلد إلا أن يكون متبعاً للدجال، أو مأسوراً معه، فإن دمشق في آخر الزمان تكون معقل المسلمين وحصنهم من الدجال، فإذا كان الأمر كذلك، فمن يصلي خارج البلد، والمسلمون كلهم داخل البلد، وعيسى إنما ينزل، وقد أقيمت الصلاة فيصلي مع المسلمين، ثم يأخذهم ويطلب الدجال ليقتله؟ وبعض العوام يقول: إن المراد بالمنارة الشرقية بدمشق، منارة مسجد بلاشو، خارج باب شرقي، وبعضهم يقول: إنها المنارة التي على باب شرقي نفسه، فالله أعلم بمراد رسول الله، ﷺ. والله سبحانه العالم بكل شيءٍ، المحيط بكل شيءٍ، القادر على كل شيءٍ،

القاهر فوق كل شيءٍ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرةٍ في السموات ولا في الأرض.

رأس يحيى بن زكريا، عليهما السلام

روى ابن عساكر عن زيد بن واقد قال: وكلني الوليد على العمال في جامع دمشق، فوجدنا فيه مغارةً فعرّفنا الوليد ذلك، فلما كان الليل وافانا وبين يديه الشمع، فنزل فإذا هي كنيسة لطيفة، ثلاثة أذرعٍ في ثلاثة أذرعٍ، وإذا فيها صندوق، ففتح الصندوق فإذا فيه سَفط، وفي السفط رأس يحيى بن زكريا، عليهما السلام. مكتوب عليه هذا رأس يحيى بن زكريا، فأمر به الوليد فرُدّ إلى مكانه، وقال: اجعلوا العمود الذي فوقه مغيراً من بين الأعمدة، فجعل عليه عموداً مسفط الرأس. وفي روايةٍ عن زيد بن واقد، أن ذلك الموضع كان تحت ركنٍ من أركان القبة ـ يعني قبل أن تبنى ـ قال: وكان على الرأس شعر وبشر. وقال الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال: حضرت رأس يحيى بن زكريا، وقد أخرج من الليطة[1] القبلية الشرقية التي عند مجلس بجيلة، فوضع تحت عمود الكاسة، قال الأوزاعي

---

(١) الليطة: القناة.

والوليد بن مسلم: هو العمود الرابع المسفط.

وروى أبو بكر بن البرامي عن أحمد بن أنس بن مالك، عن حبيب المؤذن عن أبي زياد وأبي أمية الشعنابيين، عن سفيان الثوري أنه قال: صلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة. وهذا غريب جداً. وروى ابن عساكر من طريق أبي مسهر عن المنذر بن نافع ـ مولى أم عمرو بنت مروان، عن أبيه ـ وفي رواية عن رجلٍ قد سمّاه ـ أن واثلة بن الأسقع، خرج من باب المسجد الذي يلي باب جيرون، فلقيه كعب الأحبار فقال: أين تريد؟ قال واثلة: أريد بيت المقدس، فقال: تعال أريك موضعاً في المسجد من صلى فيه فكأنما صلى في بيت المقدس، فذهب به فأراه ما بين الباب الأصفر الذي يخرج منه الوالي ـ يعني الخليفة ـ إلى الحنية ـ يعني القنطرة الغربية ـ فقال: من صلى فيما بين هذين فكأنما صلى في بيت المقدس، فقال واثلة: إنه لمجلسي ومجلس قومي. قال كعب: هو ذاك. وهذا أيضاً غريب جداً ومنكر، ولا يعتمد على مثله.

وعن الوليد بن مسلم قال: لما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء مسجد دمشق وجدوا في حائط المسجد القبلي لوحاً من حجر فيه كتاب نقش، فبعثوا به إلى

الوليد، فبعثه إلى الروم فلم يستخرجوه، ثم بعث به إلى من كان بدمشق من بقية اليونان فلم يستخرجوه، فدلّ على وهب بن منبه فبعث إليه، فلما قدم عليه أخبره بموضع ذلك اللوح، فوجدوه في ذلك الحائط ـ ويقال: ذلك الحائط بناه هود، عليه السلام، فلما نظر حرّك رأسه وقرأه فإذا هو: بسم الله الرحمن الرحيم، ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت فيما ترجو من طول أملك، وإنما تلقى ندمك لو قد زلّ به قدمك، وأسلمك أهلك وخدمك، وانصرف عنك الحبيب، وأسلمك الصاحب والقريب، ثم صرت تدعى فلا تجيب، فلا أنت إلى أهلك عائد، ولا إلى عملك زائد، فاعمل لنفسك قبل يوم القيامة، وقبل الحسرة والندامة، قبل أن يحلّ بك أجلك، وتنزع منك روحك، فلا ينفعك مال جمعته، ولا ولد ولدته، ولا أخ تركته، ثم تصير إلى برزخ الثرى، ومجاورة الموتى، فاغتنم الحياة قبل الممات، والقوة قبل الضعف، والصحة قبل السقم، قبل أن تؤخذ بالكظم، ويحال بينك وبين العمل، وكتب في زمن سليمان بن داود، عليهما السلام.

وقال ابن عساكر: قرأت على أبي محمد السلمي، عن عبد العزيز التميمي، أنبأنا تمام الرازي، حدثنا ابن

البرامي، سمعت أبا مروان ـ عبد الرحمن بن عمر المازني يقول: لما كان في أيام الوليد بن عبد الملك وبنائه المسجد، احتفروا فيه موضعاً فوجدوا باباً من حجارة مغلقاً، فلم يفتحوه، وأعلموا به الوليد، فخرج حتى وقف عليه، وفُتح بين يديه فإذا داخله مغارة فيها تمثال إنسانٍ من حجارة على فرسٍ من حجارةٍ، في يد التمثال الواحدة الدُّرة التي كانت في المحراب، ويده الأخرى مقبوضة، فأمر بها فكسرت، فإذا فيها حبتان؛ حبة قمحٍ، وحبة شعيرٍ، فسأل عن ذلك، فقيل له: لو تركت الكَفّ لم تكسرها لم يسوس في هذا البلد قمح ولا شعير. وقال الحافظ أبو حمدان الوراق ـ وكان قد عمر مائة سنةٍ ـ سمعت بعض الشيوخ يقول: لما دخل المسلمون دمشق وجدوا على العمود الذي على المقسلاط ـ على السفود الحديد الذي في أعلاه ـ صنماً ماداً يده بكفٍّ مطبقة، فكسروه فإذا في يده حبة قمح، فسألوا عن ذلك، فقيل لهم: هذه الحبة القمح قد جعلها حكماء اليونان في كفّ هذا الصنم طلسماً، حتى لا يسوّس القمح في هذه البلاد، ولو أقام سنين كثيرةً.

قال ابن عساكر: وقد رأيت أنا في هذا السفود على قناطر كنيسة المقسلاط كانت مبنية فوق القناطر في

السوق الكبير، عند الصابونيين والعطارين اليوم، وعندها اجتمعت جيوش الإسلام يوم فتح دمشق، أبو عبيدة من باب الجابية، وخالد من باب الشرقي، ويزيد بن أبي سفيان من باب الجابية الصغير. وقال عبد العزيز التميمي، عن أبي نصر عبد الوهاب بن عبد الله المري: سمعت جماعة من شيوخ أهل دمشق يقولون: إن في سقف الجامع طلاسم عملها الحكماء في السقف مما يلي الحائط القبلي، فيها طلاسم للسنونيات، لا تدخله ولا تعشش فيه من جهة الأوساخ التي تكون منها، ولا يدخله غراب، وطلسم للفأر والحيات والعقارب، فما رأى الناس من هذا شيئاً إلا الفأر، ويشك أن يكون قد عدم طلسمها، وطلسم للعنكبوت حتى لا ينسج فيه، وفي روايةٍ فيركبه الغبار والوسخ.

قال الحافظ ابن عساكر: وسمعت جدي أبا الفضل يحيى بن علي يذكر أنه أدرك في الجامع قبل حريقه طلسمان لسائر الحشرات معلقةً في السقف فوق البطائن مما يلي السبع، وأنه لم يكن يوجد في الجامع شيء من الحشرات قبل الحريق، فلما احترقت الطلسمات حين أُحرق الجامع ليلة النصف من شعبان بعد العصر سنة إحدى وستين وأربعمائة. وقد كانت بدمشق طلسمات

كثيرة، ولم يبق منها سوى العمود الذي بسوق العلبيين الذي في أعلاه مثل الكرة العظيمة، وهو لعسر بول الدواب، إذا داروا بالدابة حوله ثلاث مرات انطلق باطنها، وقد كان شيخنا ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: إنما هذا قبر مشرك مفرد مدفون هنالك يُعذّب، فإذا سمعت الدابة صراخه فزعت فانطلق باطنها وطبعها، قال: ولهذا يذهبون بالدواب إلى مقابر اليهود والنصارى إذا فعلت[١]، فتنطلق طباعها وتروث، وما ذاك إلا أنها تسمع أصواتهم وهم يعذبون، والله أعلم.

ذكر الساعات التي على باب الجامع

قال القاضي عبد الله بن أحمد بن زبر: إنما سُمّي باب الجامع القبلي باب الساعات لأنه عمل هناك بلكار الساعات، كان يعمل بها كل ساعةٍ تمضي من النهار. عليها عصافير من نحاس، وحيّة من نحاس وغراب، فإذا تمّت الساعة خرجت الحيّة فصفرت العصافير وصاح الغراب، وسقطت حصاة في الطست، فيعلم الناس أنه قد ذهب من النهار ساعة، وكذلك سائرها. قلت:

---

(١) مغلت الدابة: أكلت التراب مع البقل فأخذها وجع في بطنها، والاسم: المغلة.

يحتمل أحد شيئين؛ إما أن تكون الساعات كانت في الباب القبلي من الجامع ـ وهو الذي يسمى باب الزيادة، ولكن قيل إنه محدث بعد بناء الجامع، ولا ينفي ذلك أن تكون الساعات كانت عنده في زمن القاضي عبد الله بن أحمد، وإما أنه قد كان في الجامع في الجانب الشرقي منه في الحائط القبلي باب آخر في محاكاة باب الزيادة، وعنده الساعات، ثم نقلت بعد هذا كله إلى باب الوراقين اليوم ـ وهو باب الجامع من الشرق، والله أعلم.

قلت: باب الوراقين قبلي أيضاً، فيضاف إلى الجامع نسبة إلى من يدخل منه إلى الجامع ـ والله أعلم، أو لمجاورته للجامع ولبابه.

قلت: فأما القبة التي في وسط صحن الجامع التي فيها الماء الجاري ـ ويقول لها العامة قبّة أبي نواس ـ فكان بناؤها في سنة تسعٍ وستين وثلاثمائة، أرّخ ذلك ابن عساكر عن خط بعض الدماشقة.

وأما القبة الغربية التي في صحن الجامع ـ التي يقال لها: قبة عائشة ـ فسمعت شيخنا الذهبي يقول: إنها إنما بنيت في حدود سنة ستين ومائة في أيام المهدي بن المنصور العباسي، وجعلوها لحواصل الجامع وكتب أوقافه.

وأما القبة الشرقية التي على باب مسجد علي، فيقال: إنها بنيت في زمن الحاكم العبيدي في حدود سنة أربعمائة.

وأما الفوارة التي تحت درج جيرون فعملها الشريف فخر الدولة أبو علي حمزة بن الحسن بن العباس الحسني، وكأنه كان ناظراً بالجامع، وجرّ إليها قطعةً من حجرٍ كبيرٍ من قصر حجاج، وأجرى منها الماء ليلة الجمعة لسبع ليالٍ خلون من ربيع الأول سنة سبع عشرة وأربعمائة، وعملت حولها قناطر، وعقد عليها قبة، ثم سقطت القبة بسبب جمالٍ تحاكّت عندها وازدحمت وذلك في صفر سنة سبع وخمسين وأربعمائة، فأعيدت ثم سقطت أعمدتها وما عليها من حريق اللبّادين والحجّارة في شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة ذكر ذلك كله الحافظ ابن عساكر.

قلت: وأما القصعة التي كانت في الفوارة، فما زالت وسطها، وقد أدركتها كذلك، ثم رفعت بعد ذلك، وكان بطهارة جيرون قصعة أخرى مثلها، فلم تزل بها إلى أن تهدمت بسبب حريق النصارى في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، ثم استؤنف بناء الطهارة على وجه آخر أحسن مما كانت، وذهبت تلك القصعة فلم يبق لها

أثر، ثم عمل الشاذروان الذي شرقي فوارة جيرون، بعد الخمسمائة ـ أظنه ـ سنة أربع عشرة وخمسمائة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ابتداء أمر القراءات السبع في الجامع الأموي

قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا أبو عباس موسى بن عامر المريّ، حدثنا الوليد ـ وهو ابن مسلم ـ قال: قال أبو عمر الأوزاعي، عن حسان بن عطية قال: الدراسة محدثة أحدثها هشام بن إسماعيل المخزومي، في قدمة قدمها على عبد الملك، فحجبه عبد الملك، فجلس بعد الصبح في مسجد دمشق، فسمع قراءةً، فقال: ما هذا؟ فأخبر أن عبد الملك يقرأ في الخضراء، فقرأ هشام بن إسماعيل، فجعل عبد الملك يقرأ بقراءة هشام، فقرأ بقراءته مولًى له، فاستحسن ذلك من يليه من أهل المسجد، فقرأوا بقراءته.

وقال هشام بن عمار خطيب دمشق: حدّثنا أيوب بن حسان، حدثنا الأوزاعي، حدثنا خالد بن دهقان قال: أول من أحدث القراءة في مسجد دمشق هشام بن إسماعيل بن المغيرة المخزومي، وأول من أحدث القراءة بفلسطين الوليد بن عبد الرحمن الجرشي.

قلت: هشام بن إسماعيل كان نائباً على المدينة النبوية، وهو الذي ضرب سعيد بن المسيَّب، لما امتنع من البيعة للوليد بن عبد الملك، قبل أن يموت أبوه، ثم عزله عنها الوليد، وولى عليها عمر بن عبد العزيز، كما ذكرنا.

وقد حضر هذه السبع جماعات من سادات السلف من التابعين بدمشق، منهم هشام بن إسماعيل، ومولاه رافع، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وكان مكتباً لأولاد عبد الملك بن مروان، وقد ولي إمرة إفريقية لهشام بن عبد الملك، وابنيه عبد الرحمن ومروان.

وحضره من القضاة: أبو إدريس الخولاني، ونمير بن أوس الأشعري، ويزيد بن أبي الهمداني، وسالم بن عبد الله المحاربي، ومحمد بن عبد الله بن لبيد الأسدي.

ومن الفقهاء، والمحدثين، والحفاظ المقرئين: أبو عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن ـ مولى معاوية، ومكحول، وسليمان بن موسى الأشدق، وعبد الله بن العلاء، وأبو إدريس الأصغر ـ عبد الرحمن بن عراك ـ وعبد الرحمن بن اليحصبي ـ أخو عبد الله بن عامر ـ

ويحيى بن الحارث الدماري، وعبد الملك بن نعمان المري، وأنس بن أنس العذري، وسليمان بن بذيع القارئ، وسليمان بن داود الخشني، وعران ـ أو هران ـ بن حكيم القرشي، ومحمد بن خالد بن أبي ظبيان الأزدي، ويزيد بن عبيدة بن أبي المهاجر، وعباس بن دينار، وغيرهم. هكذا أوردهم ابن عساكر. قال: وقد روي عن بعضهم أنه كره اجتماعهم وأنكره، ولا وجه لإنكاره.

ثم ساق من طريق أبي بكر بن أبي داود: حدّثنا عمرو بن عثمان، حدّثنا الوليد ـ وهو ابن مسلم ـ عن عبد الله بن العلاء قال: سمعت الضحاك بن عبد الرحمن بن عروب ينكر الدراسة، ويقول: ما رأيت ولا سمعت، وقد أدركت أصحاب النبي، ﷺ.

قال ابن عساكر: وكان الضحاك أميراً على دمشق في أواخر سنة تسعٍ وتسعين في خلافة عمر بن عبد العزيز[1].

٣ ـ مسجد قبة الصخرة: وقد بناه في صدر المسجد الأقصى، واعتنى به أيضاً عنايةً فائقةً.

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

٤ ـ **المشافي**: اهتم الوليد بن عبد الملك بالمجذومين، وحبسهم حتى لا يختلطوا بالناس فينتقل الجذام إلى السليم، وأجرى لهم الأرزاق، وكتب إلى خالد بن عبد الله القسري أمير مكة أن يحبس أيضاً المجذومين، وأن يجرى لهم الأرزاق. ثم إنه جمعهم في دمشق، وبنى لهم بناءً خاصاً إلى الشمال الشرقي منها على بعد ثلاثة فراسخ منها كي يبعدهم عن سكان دمشق، ولا يزال البناء قائماً إلى الآن، ويعرف باسم: «مستشفى الوليد»وهو للمجذومين الآن. وكان هذا البناء قرب ينابيع تعرف باسم «عيون فاسريا» في سفوح الجبال عند نهاية التقاء أراضي بلدتي حرستا ودوما، وهذه الينابيع بعضها الحار الكبريتي، وبعضها البارد العذب. وقد تبيّن أخيراً أن هذه المياه تحول دون امتداد وتوسّع المنطقة المصابة، ولعل هذا هو سبب اختيار هذا الموقع لجمع المجذومين فيه ـ والله أعلم ـ.

ويجمع الآن المجذومون في مستشفى الوليد فيتوقّف امتداد المرض، ويعمل أكثر المرضى بتربية الدجاج، ولا تنتقل العدوى بالجذام عن طريق هذا الدجاج الذي يربيه المجذومون.

ويمر فرع من مياه عيون فاسريا من داخل مستشفى الوليد.

الفصل الرابع

شخصيّة الوليد

ولد الوليد بن عبد الملك سنة ثمانٍ وأربعين في المدينة، وأمه ولاّدة بنت العباس بن حزن بن الحارث بن زهير العبسيّ. نشأ الوليد في حياة الترف حيث تسلّم جدّه إمرة المدينة عدة سنوات في هذه المرحلة، ومع أن أباه عبد الملك كان ملتفتاً إلى العلم إلا أن ابنه الوليد كان لا يحسن العربية. وإذا عُرف امرؤ بناحية كثرت الأقاويل عن نقطة الضعف، وازدادت الشائعات. فقد روي أن عبد الملك أراد أن يعهد إليه، ثم توقّف لأنه لا يحسن العربية، فجمع الوليد جماعةً من أهل النحو عنده، فأقاموا سنةً، وقيل: ستة أشهرٍ، فخرج يوم خرج أجهل مما كان، فقال عبد الملك: قد أجهد وأعذر.

وقيل: إن أباه عبد الملك أوصاه عند موته فقال له: لا ألفينك إذا متُّ تجلس تعصر عينيك وتحنّ حنين

الأمة، ولكن شمّر واتزر، ودَلّني في حفرتي، وخلّني وشأني، وادع الناس إلى البيعة، فمن قال برأسه هكذا، فقل بالسيف هكذا.

كان طويلاً أسمر، به أثر جدري خفيّ، أفطس الأنف سائله، وكان إذا مشى يتوكّف في المشية ـ أي يتبختر ـ وكان جميلاً، قد شاب في مقدمة لحيته.

رأى سهل بن سعد(١)، وسمع أنس بن مالك(٢)

---

(١) سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة، أبو العباس الأنصاري الخزرجي الساعدي: كان أبوه من الصحابة وتوفي في حياة النبي، ﷺ. كان اسمه حَزْناً فغيّره رسول الله، ﷺ، إلى سهل. وهو آخر من توفي في المدينة من الصحابة، وقد جاوز المائة من العمر، وتوفي سنة إحدى وتسعين.
له في كتب الحديث ١٨٨ حديثاً. حدّث عنه عدد منهم ابن شهاب الزهري.

(٢) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، أبو حمزة، خادم رسول الله، ﷺ، وتلميذه. وآخر من توفي من الصحابة في البصرة، توفي سنة ثلاثٍ وتسعين. روى عن النبي، ﷺ، علماً جماً. وعن أبي بكر، وعمر، وعثمان، ومعاذ، وأسيد بن الحضير، وعن أمه أم سليم بنت مِلْحان، وزوجها أبي طلحة زيد بن سهل، وعن خالته أم حرام بنت ملْحان، وزوجها عبادة بن الصامت، وعن أبي ذر، وأبي هريرة، ومالك بن صعصعة. =

لما قدم عليه، سأله ما سمع في أشراط الساعة، وسمع سعيد بن المسيب[1]، وحكى عن الزهري[2] وغيره.

= قدم رسول الله، ﷺ، المدينة وعمر أنس عشر سنوات، ومات وأنس ابن عشرين، وصحبه أتم الصحبة، ولازمه أكمل الملازمة منذ أن هاجر وإلى أن مات، وبايع تحت الشجرة، وغزا معه أكثر من مرة. وكنّاه رسول الله، ﷺ، أبا حمزة، ودعا له فقال: (اللهم أكثر ماله وولده)، يقول أنس: فوالله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي يتعادُّون على نحو مائةٍ اليوم.

كتب عبد الله بن الزبير بعد موت يزيد بن معاوية إلى أنس بن مالك، فصلى بالناس بالبصرة أربعين يوماً. شهد فتح تُسْتَر، فقدم على عمر بن الخطاب بصاحبها الهرمزان.

مسنده ألفان ومائتان وستة وثمانون حديثاً. اتفق البخاري ومسلم على مائة وثمانين حديثاً، وانفرد البخاري بثمانين حديثاً، ومسلم بتسعين.

(١) سعيد بن المسيَّب بن حَزْن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة، أبو محمد: سيد التابعين، أحد فقهاء المدينة السبعة، جمع بين الحديث والفقه، كان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءً، كان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته حتى سمي رواية عمر.

ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أي في السنة الثالثة عشرة للهجرة. رأى عمر، وسمع عثمان، وعلياً، وزيد بن ثابت، وأبا موسى، وسعداً، وعائشة، وأبا هريرة، وعبد الله بن عباس، ومحمد بن مسلمة، وأم سلمة. وتوفي سنة أربعٍ وتسعين.

(٢) الزهري: محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب بن=

وفد أنس بن مالك سنة اثنتين وتسعين على الوليد بن عبد الملك، فقال له الوليد: ماذا سمعت من رسول الله، ﷺ، يذكر به الساعة؟ قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: (أنتم والساعة كهاتين). وقال الزهري: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلت له: ما يُبكيك؟ قال: لا أعرف مما كان رسول الله، ﷺ وأصحابه إلا هذه الصلاة، وقد صنعتم فيها ما صنعتم. وفي رواية: وهذه الصلاة قد ضُيّعت ـ يعني ما كان يفعله خلفاء بني أمية من تأخير الصلاة إلى آخر وقتها الموسع ـ كانوا يواظبون على التأخير.

وحجّ الوليد بن عبد الملك سنة إحدى وتسعين

= عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، أبو بكر، أول من دوّن الحديث، وأحد أكابر الحفّاظ والفقهاء. تابعي، من أهل المدينة، نزل الشام واستقرّ بها. كان يحفظ ألفين ومائتي حديث. كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم منه بالسنة الماضية. توفي بـ (شَغْب) بين الحجاز والشام سنة مائةٍ وأربعٍ وعشرين.

ولد سنة إحدى وخمسين، روى عن عبد الله بن عمر، وعن جابر بن عبد الله، وسهل بن سعد، وأنس بن مالك، ولقيه بدمشق، وعن سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وأبان بن عثمان بن عفان، وعبد الله بن كعب بن مالك و. . .

بالناس، فلما قرُب من المدينة أمر عمر بن عبد العزيز أشراف المدينة فتلقّوه، فرحّب بهم وأحسن إليهم، ودخل المدينة النبوية، فأُخلي له المسجد النبوي، فلم يبق به أحد سوى سعيد بن المسيَّب لم يتجاسر أحد أن يخرجه، وإنما عليه ثياب لا تساوي خمسة دراهم، فقالوا له: تنحّ عن المسجد أيها الشيخ، فإن أمير المؤمنين قادم، فقال: والله لا أخرج منه، فدخل الوليد المسجد، فجعل يدور فيه يُصلّي ها هنا وها هنا، ويدعو الله عزّ وجلّ. قال عمر بن عبد العزيز: وجعلتُ أَعْدِل به عن موضع سعيد خشية أن يراه، فحانت منه التفاتة، فقال: من هذا؟ أهو سعيد بن المسيَّب؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، ولو علم بأنك قادم لقام إليك وسلّم عليك، فقال: قد علمت بُغْضَه لنا، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه وإنه، وشرعت أثني عليه، وشرع الوليد يثني عليه بالعلم والدين، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر - وإنما قلت ذلك لأعتذر له - فقال: نحن أحقّ بالسعي إليه، فجاء فوقف عليه فسلّم عليه، فلم يقم له سعيد، ثم قال الوليد: كيف الشيخ؟ فقال: بخيرٍ والحمد لله، كيف أمير المؤمنين؟ فقال الوليد: بخيرٍ والحمد لله وحده، ثم انصرف وهو يقول لعمر بن عبد العزيز: هذا فقيه الناس، فقال: أجل يا أمير المؤمنين.

ثم خطب الوليد على منبر رسول الله، ﷺ، فجلس في الخطبة الأولى، وانتصب في الثانية، وقال: هكذا خطب عثمان، ثم انصرف، فصرف على الناس من أهل المدينة ذهباً كثيراً وفضةً كثيرةً، ثم كسا المسجد النبوي من كسوة الكعبة التي معه، وهي من ديباجٍ غليظٍ.

غزا الوليد بن عبد الملك بلاد الروم سنة أربعٍ وتسعين، وفي السنة التي سبقتها غزا منطقة ملاطية وكذا في السنة التي تلتها. وحجّ بالناس سنة أربعٍ وتسعين أيضاً.

كان نقش خاتمه: أؤمن بالله مخلصاً. وقيل: كان نقشه: يا وليد إنك ميت.

كان آخر ما تكلم به: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله.

قال إبراهيم بن أبي عبلة: قال لي الوليد بن عبد الملك يوماً: في كم تختم القرآن؟ قلت: في كذا وكذا، فقال: أمير المؤمنين على شغله يختمه في كل ثلاثٍ، وقيل: في كل سبعٍ. قال: وكان يقرأ في شهر رمضان سبع عشرة ختمةً. قال إبراهيم، رحمه الله:

الوليد وأين مثله؟ بنى مسجد دمشق، وكان يعطيني قطع الفضة، فأقسمها على قرّاء بيت المقدس.

خرج الوليد يوماً من الباب الأصغر، فرأى رجلاً عند المئذنة الشرقية يأكل شيئاً، فأتاه فوقف عليه، فإذا هو يأكل خبزاً وتراباً، فقال له: ما حملك على هذا؟ قال: القنوع يا أمير المؤمنين، فذهب إلى مجلسه، ثم استدعى به فقال: إن لك لشأناً فأخبرني به، وإلا ضربت الذي فيه عيناك، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، كنت رجلاً حمّالاً فبينما أنا أسير من مرج الصُّفَّر قاصداً الكسوة إذ زرمني البول، فعدلت إلى خربةٍ لأبول، فإذا سرب فحفرته فإذا مال صبيب، فملأت منه غرائري، ثم انطلقت أقود برواحلي، وإذا بمخلاةٍ معي فيها طعام، فألقيته منها، وقلت: سآتي الكسوة، ورجعت إلى الخربة لأملأ تلك المخلاة من ذلك المال فلم أهتد إلى المكان بعد الجهد في الطلب، فلما أيست رجعت إلى الرواحل فلم أجدها ولم أجد الطعام، فآليت على نفسي أني لا آكل إلا خبزاً وتراباً. قال: فهل لك عيال؟ قال: نعم، ففرض له في بيت المال.

قال ابن جرير: وبلغنا أن تلك الرواحل سارت حتى أتت بيت المال، فتسلّمها حارسه فوضعها في بيت

المال، وقيل: إن الوليد قال له: ذلك المال وصل إلينا، واذهب إلى إبلك فخذها، وقيل: إنه دفع إليه شيئاً من ذلك المال يقيته وعياله.

قال الوليد بن عبد الملك: لولا أن الله ذكر قوم لوط في القرآن ما ظننت أن ذكراً يفعل هذا بذكر. «فنفى عن نفسه هذه الخصلة القبيحة الشنيعة، والفاحشة المذمومة، التي عذّب الله أهلها بأنواع العقوبات، وأحلّ بهم أنواعاً من المثلات، التي لم يعاقب بها أحداً من الأمم السالفات...»[1].

كان الوليد بن عبد الملك ولوعاً بالبناء والعمران، فكتب إلى والي المدينة يأمره بتسهيل الثنايا وحفر الآبار، وأن يعمل فوّارة، فعملها وأجرى ماءها. وكتب إلى البلدان جميعها بإصلاح الطرق وعمل الآبار، ومنع المجذومين من مخالطة الناس، وأجرى لهم الأرزاق، وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام. وجعل لكل أعمى قائداً يتقاضى نفقاته من بيت المال. وأقام لكل مُقعد خادماً. ورتّب للقرّاء أموالاً وأرزاقاً. وأقام بيوتاً ومنازل يأوي إليها الغرباء. وهدم مسجد المدينة

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

والبيوت المحيطة به، ثم بناه بناءً جديداً، وصفّح الكعبة والميزاب والأساطين في مكة. وبنى المسجد الأقصى في القدس. وبنى مسجد دمشق الكبير المعروف بالجامع الأموي، فكانت نفقات هذا الجامع (١١,٢٠٠,٠٠٠) دينار، بدأ في سنة ثمانٍ وثمانون، وانتهى سنة ست وتسعون في بداية خلافة أخيه سليمان[1].

كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلفائهم، بنى المساجد بدمشق، ووضع المنائر، وأعطى الناس، وأعطى المجذومين، وقال لهم: لا تسألوا الناس، وأعطى كل مُقعد خادماً، وكل ضرير قائداً، وفتح في ولايته فتوحاتٍ كثيرةً عظاماً، وكان يرسل بنيه في كل غزوةٍ إلى بلاد الروم ففتح الهند والسند، والأندلس، وأقاليم بلاد العجم، حتى دخلت جيوشه إلى الصين وغير ذلك.

وكان مع هذا يمر بالبقّال، فيأخذ حزمة البقل بيده، ويقول: بكم تبيع هذه؟ فيقول: بفلس، فيقول: زد فيها فإنك تربح. وذكروا أنه كان يبرّ حملة القرآن، ويكرمهم، ويقضي عنهم ديونهم قالوا: وكانت همة

---

(١) الأعلام ـ خير الدين الزركلي.

الوليد في البناء، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: ماذا بنيت؟ ماذا عمّرت؟[1].

حج الوليد بالناس سنة إحدى وتسعين كما كان أبناؤه يحجون بالناس، وأخوه مسلمة بن عبد الملك، وابن عمه عمر بن عبد العزيز.

وكان الوليد يرسل أبناءه للغزو في أرض الروم - وكانوا يسيرون على رأس الغزاة، واشتهر منهم: العباس، وعبد العزيز، ومروان، وعمر. واشتهر العباس بمواقفه البطولية، فلا يعرف أنه ترك موقعه أبداً. وقد هُزم المسلمون في إحدى المعارك في أرض الروم سنة سبعٍ وثمانين وثبت أميرهم العباس مع عددٍ كانوا حوله، فجعل يصيح يا أهل القرآن حتى رجع من ثاب إلى رشده وكانت لهم الجولة على أعدائهم بعد أن كانت عليهم.

وكان الوليد يختار أهل المكانة والعلم وأصحاب الخير لمساعدته فقد اختار ابن عمه عمر بن عبد العزيز لولاية المدينة والحجاز، كما استقضى عام أربع وتسعين سليمان بن حبيب[2].

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) سليمان بن حبيب المحاربي، الدمشقي، الداراني، قاضي=

الفصل الخامس

ولاية العهد ووفاة الوليد

كان الوليد وسليمان وليي عهد عبد الملك بن مروان، فلما أفضى الأمر إلى الوليد، أراد الوليد أن يبايع لابنه عبد العزيز، ويخلع سليمان، فأبى سليمان، فأراده أن يجعلها له من بعده فأبى فعرض عليه أموالاً كثيرةً، فأبى، فكتب إلى عماله أن يبايعوا لعبد العزيز، ودعا الناس إلى ذلك، فلم يجبه أحد إلا الحجاج وقتيبة وخواص من الناس. فقال عباد بن زياد: إن الناس لا يجيبونك إلى هذا، ولو أجابوك لم آمنهم على الغدر بابنك، فاكتب إلى سليمان فليقدم عليك، فإن لك عليه

= دمشق، أبو أيوب، وقيل: أبو ثابت: حدّث عن أبي هريرة، ومعاوية، وأبي أمامة الباهلي.

كان إماماً كبير القدر، وثّقه يحيى بن معين، والنسائي، وأبو نُعيم. حكم بدمشق ثلاثين سنةً.

توفي سليمان بن حبيب سنة ستٍ وعشرين ومائة.

طاعة، فَأَرِدْهُ على البيعة لعبد العزيز من بعده، فإنه لا يقدر على الامتناع وهو عندك، فإن أبى كان الناس عليه.

فكتب الوليد إلى سليمان يأمره بالقدوم عليه، فأبطأ، فاعتزم الوليد على المسير إليه، وعلى أن يخلعه، فأمر الناس بالتأهب، فمرض ومات قبل أن يسير إليه، وهو يريد ذلك.

وكانت وفاته يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة من سنة ستٍ وثمانين عن ثمانٍ وأربعين سنة. وكانت وفاته بـ «دير مُرّان»[1] فحمل على أعناق الرجال حتى دفن بمقابر باب الصغير، وقيل: بمقابر باب الفراديس. وكان الذي صلى عليه عمر بن عبد العزيز لأن أخاه سليمان كان بالقدس الشريف. وقيل: صلى عليه ابنه عبد العزيز، وقيل: بل أخوه سليمان، والصحيح عمر بن عبد العزيز ـ والله أعلم ـ.

وهو الذي أنزله إلى قبره، وقال حين أنزله: لتنزلنّه غير موسّد ولا ممهّد، قد خلفت الأسلاب وفارقت الأحباب، وسكنت التراب، وواجهت الحساب، فقيراً

---

(١) دير مُرّان: بالقرب من دمشق على تل مشرف على الغوطة الغربية، مبني بالجص، ومفروش بالبلاط الملون.

إلى ما قدّمت، غنياً عما أخّرت. وكانت خلافته تسع سنين وثمانين أشهر.

وقد رثاه الشاعر جرير فقال:

يا عين جودي بدمعٍ هاجه الذكر
فما لدمعك بعد اليوم مُدّخر
إن الخليفة قد وارت شمائله
غبراءُ مُلْحَدَة في جولها زور
أضحى بنوه وقد جلّت مُصيبتهم
مثل النجوم هوى من بينها القمر
كانوا جميعاً فلم يدفع منيته
عبد العزيز ولا روح ولا عمر

وقد لاحظنا أن هذا النوع من النظام الوراثي عندما يكون الاستخلاف لأكثر من واحدٍ ما أن يتسلّم الأمر أولهما حتى يعمل لاستخلاف ولده أو أحب الناس إليه بعده ويحاول خلع ثانيهما، فيقع الخلاف، وتحدث مشكلة في النظام لذا كان الإسلام يرفض هذا النوع من النظام، ويترك الأمر لأهل الحل والعقد في اختيار الخليفة، وإذا دعت الضرورة أو اقتضت المصلحة للاستخلاف فلا يكون سوى الخليفة ولا يُحدّد أو يُعيّن من بعده، فرسول الله، ﷺ، لم يستخلف وإن كان قد

أشار إشارةً إذ قال: (مروا أبا بكرٍ فليصل بالناس)، فاختير الصديق خليفةً لرسول الله، ﷺ.

ورأى الصديق أن مصلحة الأمة تقتضي الاستخلاف فاستخلف الفاروق.

ووجد الفاروق أن يجعلها شورى في ستةٍ من الصحابة المشهود لهم بالجنة، فاختير ذو النورين.

واستشهد ذو النورين، ولم يكن بإمكانه الاستخلاف أو ترك الأمر لأهل الحلّ والعقد من المسلمين فاختير ابن عم رسول الله، ﷺ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء، رضي الله عنها، علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

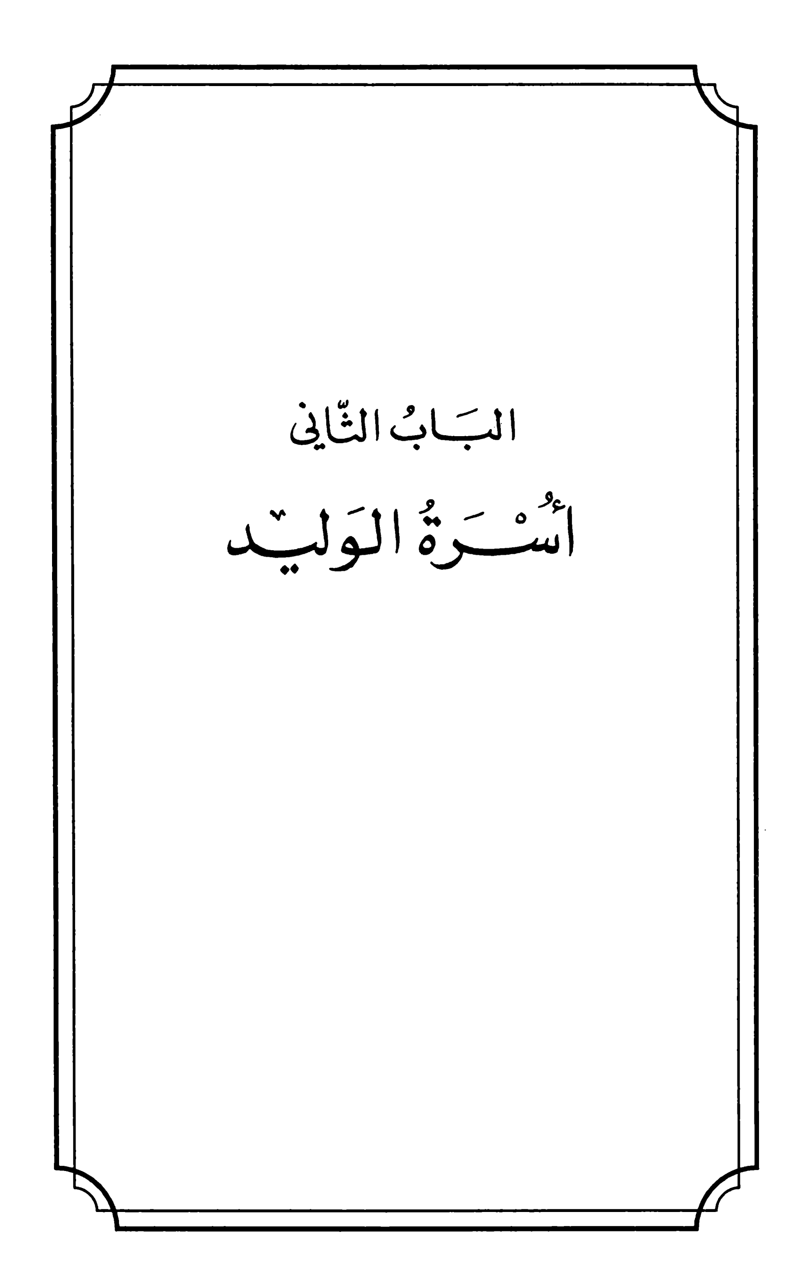
وأُصيب عليّ وبعد إصابته دخل عليه جندب بن عبد الله، فقال: يا أمير المؤمنين، إن فقدناك ولا نفقدك أفنبايع الحسن، فقال: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر.

واختار المسلمون الحسن بن علي، رضي الله عنهما. وبعدها تنازل الحسن لمعاوية بن أبي سفيان، واجتمعت كلمة الأمة بعد فرقة.

ووجد معاوية المصلحة بالاستخلاف فاستخلف ابنه يزيد، وحمل بعضهم على استخلاف الابن دون النظر

إلى الظروف القائمة، وإلى ترشيح ابن عمر لأبيه، وابن علي لوالده، ولم يعترض أحد.

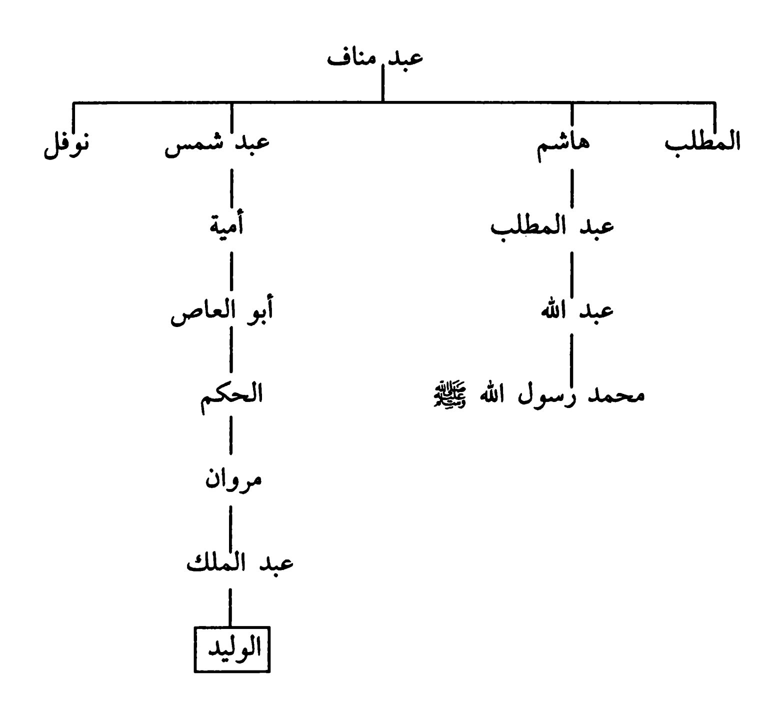
وتوفي يزيد وبايع المسلمون عبد الله بن الزبير فقام بالأمر، ووقع الخلاف واستشهد عبد الله بن الزبير، وبويع عبد الملك بن مروان بالقهر. وكان عهد الصحابة قد انتهى فأصبح يبايع لاثنين، ويحدث الخلاف، وتقع المشكلات. وقد رأينا أنموذجاً منها عندما رغب الوليد خلع أخيه سليمان والبيعة لولده عبد العزيز.



البَابُ الثّانى

أُسْرَةُ الوَليدْ

يعود الوليد إلى بني أمية بن عبد شمس فهو:
الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فيلتقي بذلك مع رسول الله، ﷺ، بالجد السابع.



الفصل الأول

والدا الوليد

الوليد بن عبد الملك، وأمه ولاّدة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جزيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قُطَيْعة بن عبس. أم الوليد اشتهرت بكنيتها: زوج عبد الملك بن مروان، أنجبت له: الوليد، وسليمان، ومروان الأكبر وعائشة.

قيل: إنه لما دخل عبد الملك بولاّدة دخل عليه أبوها من الغد، فقال: كيف وجدت أهلك؟ قال: وجدتها قد ملأتني بالدم. فقال: إنها من نساءٍ يحبسن على أزواجهن ذلك.

أما أبوه عبد الملك فقد سبق أن أفردنا له كتاباً خاصاً.

الفصل الثاني

إخوة الوليد

تزوج عبد الملك عشر نساء عدا أمهات الأولاد فأنجبن له من الذكور:

١ ـ سليمان: شقيق الوليد فأمه ولاّدة بنت العباس بن جزء بن الحارث العبسية، وقد تولّى الخلافة بعد الوليد.

٢ ـ مروان الأكبر: شقيق الوليد وسليمان، وقد مات صغيراً.

٣ ـ يزيد: وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وتولّى الخلافة بعد ابن عمه عمر بن عبد العزيز.

٤ ـ مروان: شقيق يزيد.

٥ ـ معاوية: شقيق يزيد.

٦ ـ هشام: وأمه أم هشام بنت إسماعيل بن

هشام بن المغيرة المخزومية، وقيل: اسمها عائشة.

٧ ـ أبو بكر (بكار): وأمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله التيمية.

٨ ـ الحكم: وأمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان الأموية.

٩ ـ الحجاج: وأمه ابنة لمحمد بن يوسف الثقفي أخي الحجاج بن يوسف.

١٠ ـ عبد الله: وأمه أم ولد.

١١ ـ مسلمة: وأمه أم ولد.

١٢ ـ المنذر: وأمه أم ولد.

١٣ ـ عنبسة: وأمه أم ولد.

١٤ ـ محمد: وأمه أم ولد.

١٥ ـ سعيد: وأمه أم ولد.

فللوليد خمسة عشر أخاً من عدة أمهات.

أما أخواته الإناث فهنّ:

١ ـ عائشة: وهي شقيقة الوليد فأمها ولاّدة بنت العباس بن جزء بن الحارث العبسية، وقد تزوجها خالد بن يزيد بن معاوية.

٢ ـ أم كلثوم: وأمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.

٣ ـ فاطمة: وأمها أم المغيرة بنت خالد بن العاص.

فللوليد ثلاث أخوات من ثلاث أمهات.

الفصل الثالث

زَوجاتُ الوَليد

تزوج الوليد زوجتين فقط غير أمهات الأولاد، والزوجتان هما:

١ ـ أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان فهي ابنة عمه، أخت عمر بن عبد العزيز، وأنجبت له عبد العزيز ومحمداً. روى عنها إبراهيم بن أبي عبلة، وكانت دارها بدمشق بقرب طاحونة الثقفيين المعروفة اليوم بطاحونة القلعة، وكانت لها دار أخرى خارج باب الفراديس على يسار المار إلى المقبرة.

كانت أم البنين تقول: أفِ للبخل لو كان ثوباً ما لبسته. ولو كان طريقاً ما سلكتها.

عن إبراهيم بن أبي عبلة، قال: دخلت على أم البنين، وهي تعالج قدراً لها، فقلت: ما هذا؟ فقالت: شيء اشتهاه أمير المؤمنين فأنا أعالجه.

دخلت عزة عشيقة كُثيّر الذي عُرف بها على أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز فقالت لها: ما سبب قول كُثيّر:

قضى كل ذي دينٍ فوفّى غريمه
وعزّة ممطول مُعنّىً غريمها

قالت: كنت وعدته قُبلةً. فتحرّجت منها. فقالت أم البنين: أنجزيها وعليّ إثمها. ثم ندمت أم البنين على قولها هذا، فأعتقت لكلمتها هذه سبعين رقبةً[1].

وحجّ الوليد بن عبد الملك، وحجّ محمد بن يوسف الثقفي من اليمن، وحمل هدايا للوليد، فقالت أم البنين للوليد: يا أمير المؤمنين، اجعل لي هدية محمد بن يوسف، فأمر بصرفها إليها، فجاءت رسل أم البنين إلى محمد فيها، فأبى، وقال ينظر إليها أمير المؤمنين فيرى رأيه ـ وكانت هدايا كثيرة ـ فقالت: يا أمير المؤمنين، إنك أمرت بهدايا محمد أن تصرف إليّ، ولا حاجة لي بها، قال: ولِمَ؟ قالت: بلغني أنه غصبها الناس، وكلّفهم عملها، وظلمهم. وحمل محمد المتاع إلى الوليد، فقال: بلغني أنك أصبتها غصباً، قال:

---

(١) تاريخ مدينة دمشق. تراجم النساء.

معاذ الله! فأُمِر فاستُحْلِف بين الركن والمقام خمسين يميناً بالله ما غصب شيئاً منها، ولا ظلم أحداً، ولا أصابها إلا من طيّبٍ؛ فحلف، فقبلها الوليد ودفعها إلى أم البنين. فمات محمد بن يوسف باليمن، أصابه داء تقطع منه[1].

ويبدو أنها كانت امرأةً تخشى الله وتراقبه، وقد تخطئ فلم تلبث أن تعرف خطأها وتندم على ما فعلت فتستغفر الله وتتوب إليها وتُكفّر عن خطئها بالذي تراه ويمكنها فعله.

٢ ـ امرأة من فزارة، لم تُسمّ، ولم تُنسب، وأنجبت له أبا عبيدة.

ثم هناك أمهات أولاد.

---

(١) تاريخ الطبري.

الفصل الرابع

أبناء الوليد

كان للوليد تسعة عشر ولداً ممن امرأتين وأمهات أولاد شتّى، والأبناء هم:

١ ـ عبد العزيز: وأمه أم البنين بنت عبد العزيز، وكان يقود الغزو في أرض الروم مع عمه مسلمة بن عبد الملك.

٢ ـ محمد: شقيق عبد العزيز.

٣ ـ العباس: وأمه أم ولد نصرانية، فارس بني مروان، يقود الغزو في أرض الروم مع عمه مسلمة بن عبد الملك، لا يتزحزح عن مكانه.

٤ ـ يزيد بن الوليد: وأمه أم ولد، وهي: شاهفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن كسرى، سباها وأختها قتيبة بن مسلم الباهلي. وقد تسلّم الخلافة، إذ سار إلى دمشق سنة ستٍ وعشرين ودخلها، وقتل الوليد بن يزيد لسوء

إدارة خلافته، ولهوه، ومجونه، وقد تولّى القتل عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك.

ويكنى يزيد أبا خالد، ويلقب بـ (الناقص) لأنه أنقص الأعطيات للجند، وكان محمود السيرة مرضياً.

ولد سنة تسعين بدمشق، وبويع بالخلافة في ٢٨ جمادى الآخرة سنة ستٍ وعشرين ومائة بعد مقتل ابن عمه الوليد بن يزيد. وتوفي بالطاعون في السابع من ذي الحجة في العام نفسه، فكانت خلافته أقل من ستة أشهر.

كان يزيد أسمر طويلاً، صغير الرأس، بوجهه خال، جميلاً.

كان له عقب كثير منهم: خالد والوليد، وقد قتلهما مروان بن محمد ابن عمه، وعبد الله، وعبد الرحمن، ومحمد، وأبو بكر، وعلي، وعبد المؤمن، والأصبغ.

اضطربت الأمور على يزيد، واختلفت كلمة بني مروان.

٥ ـ إبراهيم: وأمه أم ولد، واستخلفه أخوه يزيد من بعده، فبويع، وكثرت الخلافات، وأصيب سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وكان يكنى أبا إسحاق.

٦ ـ تمام: وأمه أم ولد.

٧ ـ خالد: وأمه أم ولد.

٨ ـ عبد الرحمن: وأمه أم ولد..

٩ ـ مبشر: وأمه أم ولد.

١٠ ـ مسرور: وأمه أم ولد.

١١ ـ أبو عبيدة: وأمه امرأة من فزارة.

١٢ ـ صدقة: وأمه أم ولد.

١٣ ـ منصور: وأمه أم ولد.

١٤ ـ مروان: وأمه أم ولد.

١٥ ـ عنبسة: وأمه أم ولد.

١٦ ـ عمر: وأمه أم ولد. وكان يقال له: فحل بني مروان، وكان يركب معه ستون رجلاً من صلبه، وعقبه كثير.

١٧ ـ روح: وأمه أم ولد.

١٨ ـ بشر: وأمه أم ولد. وهو عالم بني الوليد.

١٩ ـ يحيى: وأمه أم ولد.

الخاتمة

بعد هذه القراءة عن حياة الخليفة الوليد بن عبد الملك وما تمّ في عهده من فتوحاتٍ وبناءٍ تستشف النفس من سيرته أنه كان رجل برٍّ وإصلاح بعيداً عن اللهو والإغراب، إذ كان توجّهه نحو عمارة المساجد والاهتمام بالرعية بتأمين مصالحهم ورعاية صحتهم. ولو كان غير ما ذكرنا لاتّجه لإشادة القصور والاهتمام بشؤونه الخاصة كما يفعل أهل للهو ورجال الفساد. أما هو فلم يغرب بوجهه عن الخير وأهله أبداً.

لقد كانت حياته تلاوةً لكتاب الله، ومتابعةً لحركات الفتح وسير الجهاد، وملاحقةً لأعمال العمران، ورعايةً لشؤون الصحة.

وإذا كانَ قد استخدم عمالاً من الظلمة فقد استعمل رجالاً من الأخيار منهم: عمر بن عبد العزيز، وسليمان بن حبيب، وموسى بن نصير، وغيرهم كثير.

وإذا كان الظلم قد طغى في بعض الأقاليم فإن الشقاق لا تقمعه إلا الشدّة، ولا تصلح مع النفاق إلا

القوة، ولا يردّ العصيان إلا البطش، وكانت بعض الأقاليم قد تمرّست على بذر الفتن، وزرع الفوضى ولا يُخمد هذا إلا الضرب بيدٍ من حديدٍ ولا تصحّ العاطفة عند انتهاك الحرمات، ولا تُقبل الرحمة عند مخالفة الشرع. وإن مساعدة المخالفين، وتأييد الذين يريدون تمزيق وحدة الأمة، والانضمام إلى العصاة نكايةً بالظلم لهو الظلم نفسه، وهو أمر مرفوض، وغير مقبولٍ شرعاً.

وإن أصعب الأمور، وأقتل داءٍ خطأ العالم والإصرار على الموقف لمقابلة الظلم. وليست في الإسلام عصمة لعالمٍ مهما بلغ، ولا تبرئة لساحة ذي مكانةٍ. وإن ظلم الحجاج وجوره لا يُبيح الوقوف إلى جانب خصمه إن كان يشقّ عصا الطاعة. فشقّ الطاعة تجزئةٌ للأمة، وذهابٌ لريحها، وتقويةٌ للعدوّ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1].

وكان أبناء الوليد وإخوته، وهم جزء منه، من المرابطين في الثغور، وعلى رأس المجاهدين، والقادة

(١) سورة المائدة: الآية ٨.

لهم، ومن الثابتين في مواقعهم إذا حمي الوطيس واحمرّت الحدق. وهذا دليل خير وصلاحٍ.

ولكن الأعداء والمرجفين لا يتركون القافلة تسير والركب ينطلق دون أن يضعوا العقبات، ويجدوا العراقيل، ويفتروا الكذب، ولما لم يجدوا للوليد تلك السلبيات الكبيرة الواضحة نسبوا له سلبيات ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ذاك الفتى ذي اللهو والمعصية، كي يحملها العامة عليه، ويقبلها الجهلة له لتشابه الاسم.

وإذا كان لكل امرىءٍ إيجابيات وسلبيات، ولا يخلوا امرؤ من إحداهما فإن سلبيات الخليفة قليلة نسبياً، بسيطة نظرياً وتكمُن في ضعف لغته، وفي مشيته، ورفاهية معيشته. نرجو الله أن يُسامحه ويغفر له.

وردت إليه الأموال غدقاً، فأنفقها في مصارفها المشروعة من بناء بيوت الله، وأُعطيات للرعية، ونفقات المحتاجين، والمصروف على المرابطين وحماية الثغور، وفي سبيل الله ووجد عنده مالاً وفيراً فأنفقه على بناء الجامع الأموي بدمشق، وقد رأينا أنه كلَّف أموالاً طائلةً دفعها من ماله الخاص. نرجو له الأجر والمثوبة على ما قدّم.

نرجو الله أن يرينا الحق حقاً وأن يرزقنا أتباعه، وأن يرينا الباطل باطلاً وأن يرزقنا اجتنابه. والحمد لله رب العالمين.

المُحْتَوَى

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني
أسرة الوليد